فتح الله كولن

قصة حياة ومسيرة فكر



محمد فتح الله كولن

قصة حياة ومسيرة فكر

الطبعة الثانية: 1435 هـ - 2014 م

تحرير

ويسل فيليك

مراجعة

ويسل فيليك - عبدالله محمد بسطويسي

تصحيح

عبد الجواد محمد الحردان

تصميم

أحمد على شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع: ISBN 978-975-315-532-8

رقم النشر

480

IŞIK YAYINLARI

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1

34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جــ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

فتح الله كولن

قصة حياة ومسيرة فكر

تأليف

أَرْطُغْرُول حِكْمَة

ترجمة

عبد المولى علي جربيـع

خالد جمال عبد الناصر


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

المقدّمة

يدخل بعض الأعلام التاريخ من أوسع أبوابه؛ فترى بصماتهم واضحة في صفحاته، ومن هؤلاء الأستاذ "فتح الله كُولَن" والحديث عنه حديث عن مطلع القرن الحادي والعشرين.

كان الأستاذ فتح الله كُولَن العقلَ المؤسس لحركة "الخدمة"، وتُعَدّ الخِدمة من العوامل الأساسيّة التي سترقى بالأمّة التركية إلى مسرح التاريخ في القريب المنظور، فقد اضْطَلَعت بدورٍ بارز في الإنجازات التي حققتها هذه الأمّة في القرن المنصرِم، بعد أن مُنيَت بالهزيمة والفرقة في آخر قرنين ونصف، وكلّ من له دراية بأيسر مبادئ علم الاجتماع أو من له علم -ولو يسيرًا- عن حركة تاريخ الحضارة، سُرعان ما يُدرِك أنّ حركة الخدمة التي انتشرت على مستوى العالم ستُسهِم في اكتساب القرن الحادي والعشرين هُوِيّةً جديدة؛ لذا بات مهمًّا للغاية التعرّف على العقل المؤسس لهذه الحركة لنعرِفه جيِّدًا وندرك مكانته.

لَطالما كان الأستاذ فتح الله كولن -ولا يزال- موضوعَ كثير من الدراسات والأبحاث في عدد كبير من الجامعات العريقة في أنحاء العالم كافَّة، وما أكثرَ المؤتمرات التي بحثت اتجاهاته المتعددة؛ وبعض هذه الدراسات منشور متداوَل، لكن ما أقلَّ الدراسات التي عُنيَت بسيرته الذاتيَّة؛ وكأنَّ السبب أنَّ محور اهتمامه كان يتمركز حول تقديم الخِدمات لا حول شخصِه هو، فهو لا يحبّذ أن يتحدث عنه أحد، بل يرى أنّ ما ينفَق من الأوقات في دراسات تتناول شخصَه يذهب هباءً، ولا طائل من ورائه.

وهذا من تواضعه، بل إنه سمة شخصيّته المتواضعة، لكننا نرى أنَّه لا بدّ من التعريف بشخصيته وحياته التي وقفَها لخِدمة الأمة والإنسانية جمعاء؛ لندرِكَ ونُلِمّ بحركةٍ كان هو الرائدَ الفكري لها.

ويُسْتَشفّ من هذه الدّراسة أنه ليست في حياة الأستاذ فتح الله أيّة نقطة سوداء، فلم يكن لديه -منذ أن وُلد إلى يومنا هذا- ما يخفيه عن الناس من قول أو فعل، فما عاش حياته لنفسِه؛ إذ إنه ليس ممن يلهثون وراء أهوائهم ونزواتهم؛ بل وقف حياته للأمّة وقومُه على ذلك من الشاهدين؛ حقًّا ليس في حياته ما يخفى أو يُستحَى منه؛ ولا ينبغي أن تقتصر معرفتنا به على الجانب الماديّ في حياته، بل يجب أن نتخذ من ذلك سُلَّمًا نطّلع منه على الخدمة كيف نمت وازدهرت بريادته، يقول "جميل مَرِيج"[١]: "الحمقى هم الذين يقتصرون على معرفة التسلسل التاريخي فحسب"، فلا بُدَّ مِن سَبْر حياة الأستاذ فتح الله لِنَعِيَها كما يجب، وإذا ما أمعنا النظر في حياته رأينا أنّ ما يقوله أو يفعله من الوضوح بمكان، حتى لكأنَّه نصٌّ ما أيسرَ أن يُحلَّل ويُفسَّر، فأفعاله وأقواله كأنها منظومة معانٍ، وسيكشف البحث في حياته ومؤلفاته أن هذا كلّه حقيقة لا تمت إلى المبالغة بِصِلة.

نشأ الأستاذ فتح الله كولن في بيئة ذات طابع خاص منذ طفولته، فأسهم من حوله جميعًا في بناء شخصيّته؛ فتربيتُه في الزوايا على يد الشيخ "أَلْوارْلي أفه"، وما أخذه عن والده في حبّ الصحابة الكرام، وما حصله من علوم في المعاهد الشرعية، كلّ هذا أسهم في تضلّعه بالعلم ومعرفته بالوجود، أمَّا أنَّه ليس كمثله شخص في بيئته فهذا ما لا يختلف عليه اثنان ممن يعرفونه أقرانًا كانوا أم معلِّمين.

---

(١) جميل مَريج: مفكّر تركيّ، وكاتب وشاعر مشهور (١٩١٦-١٩٨٧م).

إن التخصُّص العلميّ -وفقًا لمفهوم العلم الحديث- يجعل آفاق المتخصصين سطحيَّة ضيقة، فكثير من المتخصصين في فرعٍ ما من العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعيّة ليس في جَعبتهم عن العلوم الأخرى سوى معلومات سطحية، هذا إن علِموا عنها شيئًا؛ أمَّا الأستاذ فتح الله فلا يرتاب أحد ممن خبَره وقرأ كتبه أو تحدّث إليه أنّه متضلِّع في علومٍ شتى... تعجب له وهو يفيض في الحديث بعمق عن التطورات الطبيّة التي لا يعرفها إلا المتخصصون، وبوسعه أن يفعل مثل ذلك في تاريخ الفلسفة الغربية مثلًا، وإذا ما تأمّلت رؤاه وآراءه ومقترحاته في اللغة التركية وآدابها أدركْتَ أين بلغت به سَعة الأفق في هذا أيضًا.

بنى الأستاذ فتح الله حياتَه على مبادئ ومفاهيم جسّدتها قيم مُثلى؛ فالفكر والحركة والدّقة البالغة في كلّ الأمور خصال رئيسة في شخصيّته، بل إنَّ المفاهيم الأخرى المنشورة في المقالات الرئيسة بمجلة "سِيزِنْتي (الرشحة)"[٢] لا تعدو أن تكون شرحًا لها، ومنها: الحبّ والسَّلام والوفاء والاستقامة والولاء، ومن تأمَّل حياته فسيرى أنَّ هذه القيم ليست قوالب فكريّة فحسب، بل إنّها نمَط حياة، كان -وما يزال- مستقيمًا عليه في لحظات حياته كلّها، فأحرِ به أن تكون هذه القيم والمبادئ روحَ حياته التي أسماها "دنياي الصغيرة"[٣].

الثوابت المعياريّة لأقواله وأفعاله هي الكتاب والسنة أي الأحكام التي شرعها الله فيهما، فمثلًا تجده في أحاديثه وأفعاله يُعلِي قدْر الإنسان

---

(٢) مجلة شهرية بدأت تصدر في فبراير/شباط ١٩٧٩م، يكتب الأستاذ فتح الله كولن مقالها الرئيس، وهي مجلَّة علميَّة، تقنيَّة، ثقافيّة، أدبيّة، تربويّة، اجتماعيّة، وما زالت تصدر حتى الآن.

(٣) كتابٌ جُمِع من حوار أُجري مع الأستاذ فتح الله كولن عن حياته منذ نشأته حتى إطلاق سراحه بعد سَجنه عقب انقلاب ١٩٧١م.

ويبحث قضاياه في حدود ما خُلِق له؛ ولرؤيته هذه أثر كبير على الإنسان، فعندما تلِج حيث يقيم في أمريكا تطالعك لوحة معلقة على الجدار كُتِب عليها "خُدِعَ الإنسان، ما أخسرَه!"، وهي إحدى اللوحات التي تطالع من يأتيه زائرًا، وكأنها تُهيب بالناس أن ينتبهوا إلى ما في عواقب فِعالهم من خسران، ولو أن الأستاذ فتح الله كتب رواية لأسماها "خُدِعَ الإنسان، ما أخسرَه!"، هكذا كان يقول.

الاتزان والاعتدال في الوعظ والإرشاد من أبرز خصائصه، وهذا لا يعني السلبية والجمود والتبعية؛ بل هو سلوك من يحتضنون الوجود بأكمله، وينظرون إلى كل القضايا في إطار هذا الكمال، ففي حديثه عن تاريخ الإنسانية يرى ضرورة تقييمه في ضوء تاريخ الفرص الضائعة للسلام لا بتاريخ العداوات، فالبشر بينهم نقاط مشتركة في المجالات كافّة، فمثلًا إذا ما أنعمنا النظر في مقالاته المنشورة في كتاب "التلال الزمردية"[٤] التي كسَت المصطلحات الصوفية حُلَّة قشيبة، فسنجد أنه لَطالما كان يكشف عن محلّ وِفاق بين قضايا في الحضارة الإسلامية كانت محلّ نزاعٍ انتهت المناقشات العلمية فيه إلى الاتهام والسخرية أحيانًا، وكان الأستاذ فتح الله لا يألو في الكشف عن ثراء تلك النقاط.

ما توخينا استعراضه من موضوعات في هذه المقدِّمة هدفه الكشف عن أنّ فهم شخصية الأستاذ فتح الله ضروريّ؛ فمعرفة حياته من الجانب الماديّ لا تُغني شيئًا، بل لا غنى عن المثابرة على فهم حياته وسبرها وترك النظر إلى ما طفا على السطح، بل الغوصَ الغوصَ إلى الأعماق؛ فهدف هذا الكتاب هو التعريف به، وهذا لا يتحقق إلا بسبر شخصيّته، فالقراءة وحدها لا تغني شيئًا، بل لا بدّ من سبر أغوار ما يقرأ.

---

(٤) التِّلال الزُّمُرُّدِيّة: كتابٌ من أربعة أجزاء، أصله مقالات في مجلة "سِيزِنْتي" للأستاذ فتح الله كولن، موضوعه: التصوف في ضوء الكتاب والسنة.

في كتاب اسمه "دنياي الصغيرة" نُشِرت مذكِّرات أدْلَى بها في حوارٍ، فسلطت الضوء على حياته، فاتخذتُ من هذا الكتاب مصدرًا رئيسًا، لا سيما أنّه عُنِي بأيّامه في مدينتَيْ "أَدِرْنَه" و"إِزْمِير"، وزدْتُ عليه ذكريات كانت في تلك الأيام، وهي بالغة الأهمية؛ إذ إنَّها تكشِف اللِّثام عن شخصيته كيف كان يقرؤها مَن كانوا حوله في فترات حياته المختلفة، وتُسهم فيما نقدّمه هنا في محاولة منّا لفهم حياته؛ وأفدْتُ أيضًا بمذكراته والحوارات والصور على موقعه (ar.fgulen.com) وعلى صفحة "الأكاديمية"(٥) في جريدة "زمان"(٦).

أمَّا حياته وعُزْلته في أمريكا وما فيها من أحداث -وأعني بذلك السنوات الأخيرة منذ عام ١٩٩٩م- فسنعرِّج عليها بإيجاز؛ نظرًا لقِصَرها مقارنة بالمدة التي قضاها في تركيا.

ومن يُصغِ إلى مواعظه حينئذ ويتأمَّل فيما جُمِع منها في سلسلة "الجرة المشروخة"(٧)، يتضح له ما كان يتكبده في غربته من أوصاب وهموم في سبيل الوطن والأُمَّة والعالم أجمع.

وكلّنا أمل أن يُسهِم هذا الكتاب في سبر شخصية ذات أبعاد جمَّة غفيرة كشخصية الأستاذ فتح الله كولن، لا أن يعرِّف به فحسب.

(٥) صفحة أسبوعيّة تُنشر في جريدة "زمان"، وتُجمَع من مواعظ الأستاذ فتح الله كولن، نُشِرَت أوَّلًا باسم صفحة "الأكاديمية" ثم باسم "المنبر" بدءًا من مايو/أيار ٢٠٠٦م.

(٦) جريدة بدأت تصدر في ٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٦م بتوجيه وتشجيع من الأستاذ فتح الله، بلغ عدد قُرَّائها مليون قارئ، وتُنشر في عدة دول غير تركيا، منها أمريكا، وبعض دول أوربا وشرق آسيا.

(٧) مقالات تُنشر أسبوعيًّا على الموقع www.herkul.org في نافذة (قريق تستي "الجرَّة الشروخة")، وقد جُمِعت من مواعظ الأستاذ فتح الله كولن في أمريكا، وأصبحت سلسلة في كتاب بلغ ١٢ جزءًا في نهاية عام ٢٠١٢م.

البقعة المباركة:
أَخْلاط[٨]

تنحدر أصول الأستاذ فتح الله كولن من مدينة أخلاط، ولا بدّ لإدراك كنه هذه السلالة من إدراك الدور المحوريّ لمدينة "أخلاط" في التاريخ الإسلامي أوَّلًا، فهي بوّابة الإسلام إلى الأناضول، وأوّل بقعة مباركة في الأناضول يُرفع فيها الأذان ويُذكَر فيها اسم الله ﷻ ورسوله ﷺ.

وبسقت من فسائل الإسلام في هذه المدينة أشجار سامقة، انشعبت أغصانها حتى أظلَّت الأناضول، ثم فاح عبيرها في العالم كلّه بريادة العثمانيين، فأخلاط هذه هي مهد الإسلام في بلاد الأناضول، وقد كان مِن فسائلها ما كان في نشر عبيره.

وإذا كانت أقدم شواهد قبور الأناضول الآن في أخلاط، فهذا يُجلِّي لنا المكانة التي اضطلعت بها تلك المدينة منذ قرون عدّة؛ فقد نشر أبناؤها الإسلام في مناطق هجرتهم التي أرغمتهم عليها الكثافة السكانيّة فيها، فعلى أيدي هؤلاء المهاجرين انتشر الإسلام في بلاد الأناضول والبلقان، ومن "أخلاط" كانت الهجرة المباركة، وأشرق التاريخ التركيّ الإسلاميّ، وغدت جسرًا عبَر منه الإسلام إلى قلب الأناضول ثم إلى الغرب... فأخلاط في قِيَمِها ظرفٌ لأزمنةٍ انصهرت في ماضٍ عريق، بوسعنا

---

(٨) هي مركز تابع لمحافظة "بِتْلِيس" في منطقة شرق الأناضول، وهي تقع على الساحل الشمال الغربي من "بحيرة وان" بتركيا. (المترجم)

أن نتذكَّر الحياة فيها أمَّا أن نحاكيها فهيهات، عينها ساهرة على ماضيها تبيت تحرسه كما تصون شرفها، عذراء لم تمسَّها الحداثة بسوء ولو بنظرة، ولم تقدر أن تحوِّل ماضيها إلى "حاضر"، فأخلاط ساحرةٌ خلَّابة دائمًا بحالها هذا وموقعها ذاك.

حقًّا إنّ الجنود هم الذين فتحوا إسطنبول بعُدّتهم وعتادهم بقيادة محمد الفاتح، إلا أنَّ "أخلاط" هي التي نفخت الروح في إسطنبول لتجعل منها مدينةً عثمانيَّة، فـ"أخلاط" بالأحرى هي التي أنقذت إسطنبول من نِيْر الغزو الثقافي للبيزنطيين، وهيّأت الأجواء لدخولها في الإسلام؛ وهي أحقّ من بُورْصة بلقب "المدينة الروحيّة"، نعم كان لبورصة يد في الدولة العثمانية، إلا أنّ "أخلاط" كانت لها اليد الطولى في نشر الإسلام في الأناضول، ومنه إلى المناطق الأخرى، فلطالما عُنيَت "أخلاط" بفسائلها التي غُرِست فيها، وأهدت أغصانها بأريجها الفوَّاح بالهدى والسلام إلى أنحاء العالم كافّة.

ومن أغصان تلك الفسائل ذريّة "خليل أَغا"، هاجرت فيمن هاجر وعبَق الهدى يرشح منها... رحل خليل أغا وذريّته وفي جَعبتهم كلّ ما كان في أخلاط من ثراء روحي وتاريخيّ؛ رحلت العائلة من أخلاط لظروفٍ خاصَّة، وكانت تحمل معها بذرة مباركة من بقعة مباركة، ثم ولَّت وجهها شَطْر "أَرْضُرُوم" "قلعة الإسلام في الأناضول".

أصولُه ونشأته

انتقلت عائلة الأستاذ فتح الله إلى مركز "باسِينْلَر" ("حَسَن قَلْعة" سابقًا)، ثم إلى قريةٍ بين باسِينْلَر وأرضروم تُدْعَى "قُورُوجُق"، ومنذ أنْ حلَّ جدّه الأعلى خليل أغا بهذه المنطقة كانت تراوده أحلام العودة إلى أخلاط، بيد أنّ العائلة لم تستطع أن تعود، فاستقرّ بها المقام في قرية قُورُوجُق حتى غدا أكثر أهلها منها.

الإنسان في علم النفس الحديث إن هو إلا نِتَاج البيئة والوراثة؛ وهذه الفكرة وإن كنَّا لا نسلِّمها بإطلاقها، إلا أنّ تأكيده على البيئة التي يتربّى فيها الفرد له أهميّته، فمن يسبر حياة الأستاذ فتح الله يتبيّن له أن بيئة أسرته التي تربّى فيها كان لها بالغ الأثر في شخصيته، وأنَّها أساس في تكوين أهمّ خصال حياته "الفكر والحركة والدّقة"، لقد اصطبغت بيئة أسرته بصبغة الإسلام وهديه رغم كلّ الصِّعاب والعقبات في ذلك العصر، بل إنّ كل فردٍ في أسرته اصطبغ بصبغة الإسلام.

كان لخُورْشِيد أَغا بن خليل أغا ولدان: سليمان أفندي والملَّا أحمد، اشتغل سليمان أفندي بالتجارة؛ أما الملا أحمد والد شامل أغا جدّ الأستاذ فتح الله فقد آثر الزهد رغم أنّه أُوتي سَعة من المال، فكان الزهد والتقوى لباسه، ورياضة النفس أساسُه، وله في حُبيبات الزيتون غَنَاء، قويّ البنية، طويل القامة، مهيب، يحترمه الناس جميعًا، في إشراقاته الروحيّة سرّ عظمته الحقيقية، حياته كلُّها تنسُّك وتعبُّد، لم يُعهَد عنه التواني في أداء العبادة، وصار يقوم الليل كلَّه في العقود الثلاثة الأخيرة من عمره،

لا يغمـض لـه جفن ولو في السَّحر عندما يصرَع النَّومُ السُمَّار، ولا يغفو سوى ساعة أو ساعتين فحسب.

كان شامل أغا جدّ الأستاذ فتح الله أشبه الناس بوالده، فهو مثال الوقار، والحيطة، والجديّة، والشّدة في أمر الدّين، فحياة الرّوح هي محور أفعاله، فشعاره "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة"، وهو رجل جادّ وَقور يحترمه الناس جميعًا، حياته حياة الأولياء؛ يتهجد حتى الفجر، وله في لُقيمات يقمْنَ صلبه الغَنَاء، يصوم حتى تظن أنّه لا يفطر، له من الأشقّاء أربعة: شاكر أغا، وعاكف أغا، وذاكر أغا، ومحمد علي أغا.

وما إن حطّت العائلة رحالها في قُورُوجُق حتى اضطرت للهجرة مرتين:

الأولى: أثناء الحرب العثمانية الروسيّة (١٨٧٧- ١٨٧٨م) المعروفة بـ"حرب ٩٣"[٩]، اضطرب أمر العائلة، فرحل الملا أحمد بأسرته إلى ضواحي مدينة "سِيواس"، وأعوَزَت العائلة هناك، فلما انتهت الحرب عادت إلى قُورُوجُق.

في عام ١٨٩٠م بُعيد العودة الثانية إلى قُورُوجُق بنحو ٨-٩ سنوات؛ توفي الملا أحمد.

الثانية: إبّان الحرب العالمية الأولى، ففي هذه المرة ذهب شامل أغا بأفراد الأسرة إلى إحدى قرى "يَرْكُوي" في مدينة "يُوزْغات"، وما إن انتهت الحرب حتى عادت العائلة إلى قريتها في أرضروم -عادت- مترجِّلة لِما حلّ بها من ضيق ماديّ.

(٩) اشتهرت هذه الحرب في التاريخ العثماني بـ "حرب ٩٣" لوقوعها عام ١٢٩٣ من التقويم الرومي.

ورغم هيبة شـامل أغا العظيمـة، إلا أنه كان بينه وبين حفيده فتح الله اتصـال روحـيّ لم يسـتطع أحد أن يلحظـه، كان يحبّ حفيـدَه كثيرًا وإن لم يكن يظهر ذلك، فما رُئيَ هذا الرجل العثمانيّ يبكي قطّ إلا عندما رأى حفيـده لأول مرة بعد غياب كان بسـبب تعيين والـده إمامًا في قرية أَلْوار، احتضنه فأخذه البكاء، وفاضت مشاعره بهذا الشِّعر:

غادرت وردتنا البلد الذي جفاه أحبّتي والعندليب
فابكِ إن شئت حبيبَك أو دعِ واضحك إن شئت فالبينُ نحيب

ولشامل أغا ستة بنين وبنت اسمها دُرْدانة، والبنون هم: رامز وراسم ونور الدين وأنور وسَفَر وسيف الله.

أمّا أجداد الأستاذ فتح الله لأمِّه فلا تكاد تختلف بيئة حياتهم الروحيّة عن أجداد أبيه في شـيء، كان جدّه أحمد أغا حفيد قُورْت إسـماعيل باشا ورِعًا حتى إنَّه كان يَخْشَـى الذهاب إلـى المدينة حذَرًا من أن يُقارِف ذنبًا، وكان يختـم القرآن كل أسـبوع مـرة فأكثر؛ أما جدَّته السـيدة خديجة فهي من سلالة حامي أدرنه شكري باشا.

كان للأستاذ فتح الله خال اسمه عبد الرزاق طُوب، قضى عنده فترة من طفولته، وهو إحدى فرائد عِقْده الروحيّ، وصفه الأسـتاذ فتح الله بأنّه من "أهل القرآن"، وقال: "إني لَأشبه الناس به في خِلْقته لا سيما العينين".

ولجدّتـه لأبيه السـيدة مؤنِسـة أثـرٌ بالـغ في حياته، فكـم كان يذكرها في مواعظه وإنَّ لأنينها ونحيبها من خشـية الله أثرًا كبيرًا في نفسـه، فعبادة الله ومحبته محور حياتها، حتى إنّها إذا سـمعت اسـم الله لم تملك عينيها، صوّامة صامت اثني عشـر عامًا متصلة، يصفها الأسـتاذ فيقول: "يا الله كم أثَّـر فـيَّ عمقها مثـل البحار الهادئة، فبشـائر الإيمان عليهـا بادية، وصِلتها

بالله ظاهرة، كانت مبتسـمة وكان جُل ضحكها التبسـم". وفي هذا ما يشير إلى أنها كانت تجتهد في أن تجعل من أفعالها مِرآةً للإسلام.

في عام ١٩٠٥م وُلِد رامز أفندي والد الأستاذ فتح الله، حالَت هجرة الأسـرة وما فيها من عقبات بين رامز أفندي والاسـتمرار في طلب العلم، إلا أنَّه بعزمه وإرادته تعلَّم تلاوة القرآن الكريم في عقده الثالث، وسرعان ما رقي به شـغفه بالقراءة والعلم على سُـلَّم العلوم الشرعية، حتى إنّه عُيِّن إمامًا؛ كان من سمته الدقّة البالغة في الحياة والخشوع في الصلاة، يستثمر وقتـه بدقّـة، فتجده يملأ الفترة ما بين عودته مـن الحقل إلى إعداد الطعام بقراءة الكتب، وهو في الطريق تجده يقرأ القرآن الكريم أو يذاكِر ما حفظه مـن نَظْـم العربية والفارسـية؛ كان مضيافًـا، لا يكاد بيته يخلـو من العلماء وكأنّـه معهد شـرعيّ؛ كان قـويّ الحافظة حادّ الـذكاء، وكان يتميز -فضلًا عـن هـذا كلِّه- بالدماثـة، ففي هذا المقام يقول الأسـتاذ محمـد قِرْقِنْجي: "يـا لَـه مِن رجل! فرغم نشـأته في قرية إلا أنه يباري من تربَّى في مدرسـة أنـدرون العثمانيـة(١٠) مـن النبـلاء، فأن تعـرف متى وكيف وبأي أسـلوب تتحدث تعوزك لهذا تربية خاصَّة وأخلاق سامية".

من الخصال البارزة في رامز أفندي تعلّقه بالصحابة الكرام ﵃ حتى لكأنّـه مجنـون بهـم، وكثيرًا ما كان يقـرأ عن حياتهم؛ فورث عنه الأسـتاذ فتـح الله هـذا الحبّ الجمّ لهـم، بلـغ ولـع رامز أفنـدي بالصحابة أن أهل بيته كانوا يشعرون أنهم والصحابة أسرة واحدة، فذكرهم ديدنه، والحديث

(١٠) مدرسـة في القصر العثماني أُسسـت في عهد السلطان مراد الثاني، وحُدِّثتْ في عهد السلطان محمد الفاتـح، هدفها تربية الهيئة الإدارية والعسـكرية للدولة، وتأهيل القـوى العاملة في العاصمة العثمانية وفي الطبقة البيروقراطية في الريف.

عنهـم متعته، ولو رأيت هذا العاشـق الولهان يحـدِّث الناس عن الصحابة ويسرح بناظريه في الأفق لحسبتَه يراهم رأي العين.

كان رامز أفندي -في رأي الأسـتاذ فتح الله- أرضًا طيبة يُستنبت فيها الطيب النافـع، إلا أنّ الأجواء لم تأذن للرياح أن تسوق السحاب إلى هذه الأرض، وكان مدرسـةً فـي الوَرع؛ فكان إذا عـاد بالبقر من الحقل يلجمه لئلا يأكل من عشب الحقول ولو قليلًا.

تربية الشـرق هي نمط علاقة الأستاذ فتح الله بوالده، كان يجلس بين يدَيـه ليتعلّـم القـرآن، فيحبِّب إليه حفظه، ولـم يكن ليُظهـر حبَّه لولده أمام أحد رغم أنّه كان يحبُّه حبًّا جمًّا.

أمَّا والدة الأستاذ فتح الله فهي السيدة رفيعة، معلِّمه الأوّل، وهي من أسرةٍ عريقة، فعمُّها هو مفتي الشام يومئذ، كانت ربّة منزل فيه خمسة عشر فردًا تقوم على شـؤونهم، ومـع هذا دأبت على تعليم نسـاء القرية القرآن رغـم الأخطار فـي الفترة التي حُظِرت فيها قراءة القـرآن وتعليمه؛ علّمت وليدهـا فتـح الله قراءة القرآن وهو في الرَّابعة، وما إن تعلّمه حتى قرأه كلَّه لأول مرة في شـهر، فكان للسـيدة رفيعة أكبر الأثر في حياة الأسـتاذ فتح الله بعشـقها لتعليـم القرآن الكريـم، ومواظبتها علـى أداء العبادة، وحياتها الملأى بالمسؤوليات.

يا الله ما أوثق صلة هذه السـيدة بربِّها! ذات ليلة همّ الأسـتاذ فتح الله ابن الثانية أو الثالثة عشرة أن ينام قبل أن يصلي العشاء، فآذَنَتْه أمّه بالصلاة، فأجـاب: "إننـي مُرهَق، لعلِّي أسـتيقظ ليـلًا وأصلي"، فقالت: "ربما يشـق عليك ذلك، فتفوِّت الصلاة، ثكلْتُكَ الليلة إذا لم تنهض لتصلي". بلـغ بها إيمانها أنها تستغني عن فلذة كبدها إن لم يأتِ بما أمر به الله.

بيْـنَ الأسـتاذ فتـح الله وأمِّـه وشـيجة حبّ وثيقـة، فهو يدهـا اليمنى في البيت، إذ كان لها ثمانية أولاد ترعى شـؤونهم، فكان الأسـتاذ فتح الله -وهـو يحفـظ القرآن في هـذه الآونة- يغسـل -وهي مريضـة- الملابس والأطباق، ويطبخ ويعجن... نعم، فدأب أمِّه على تحفيظ القرآن، ورعاية أولادها رغم أنها مجهَدة مرهقة، ومواظبتُها على أداء الفرائض حقَّ الأداء، كل ذلك كان له بالـغُ الأثر في حياته.

توفي ثلاثة من إخوته العشـرة وهو طفل، كانت السـيدة "نور الحياة" أكبرهـم، ثـم فضيلة إلا أنها وافتها المنية وهي طفلة، ثم الأسـتاذ فتح الله، فصبغة الله، ثم المسيح، ثم فقير الله إلا أنه توفِّي وهو طفل، ثم حسبي[١١]، فصالـح، وفضيلة، ثم نظام الديـن إلا أنّه توفّي وهو طفل، ثم قطب الدين أصغرهـم؛ وبيـن الأسـرة عُرى وثيقـة من الحـبّ والتقديـر، فعندما غادر الأسـتاذ فتـح الله أرضـروم إلى أدرنه ومنها إلى الجيش لم يكلِّم المسـيح أحدًا خلال أربـع سنوات فارقهم فيها أخوه الأكبر، قلّما تحدث إلى أحد، إذ صار شغفه بأخيه فتح الله حجابًا بينه وبين الناس. وكذلك كان الأستاذ فتح الله، يحكي أن أختًا له توفيت في طفولته فبكى عليها كثيرًا وزار قبرها كثيرًا وكان يدعو: "اللّهم ألحقني بأختي لأراها".

يُـروَى عـن أمِّـه وذوي القربى القريبـة أنّ أصوله من جهـة أبوَيه من شجرة أهل البيت المباركة، لكن الأستاذ يقول: "إنّه لا يمكن القطع بشيء في هذا؛ فكتاب شجرة العائلة مفقود".

ومـن ألمع الحلقات التي تشـكّل منها عقد الروح في حياة الأسـتاذ فتح الله: الشيخ "أَلْوارْلي أَفَه"، فهو واسطة العقد، بل كأنه مغنطيس المعنى

(١١) حسبي ندائي كُولَن توفي في ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٢م.

ومنبع تتغذى منه روح الأستاذ فتح الله، فالحديث عنه قبل دراسة حياة الأستاذ فتح الله ضروريّ جدًّا؛ لنتعرف على بيئته التي ترعرع فيها.

بـرَزَ الشـيخ أَلْوَارْلي أَفَه فـي طليعة علماء عصر الجمهورية، فنشـأته شـهدت أفـول الدولـة العثمانيـة وظهـور الجمهوريـة، وله أثـرٌ كبير على الأسـتاذ فتـح الله فـي تربيته وتعليمه، يقول الأسـتاذ: "الشـيخ أَلْوَارْلي أَفَه هـو اليـد الخفية التـي كانت وراء ما أجـده من مشـاعر"؛ فتربَّى في أرضٍ كان ينبوعها السـيد أَلْوَارْلي أَفَه؛ وكان له في قلوب الأسـرة كلِّها حبّ جمّ وتقدير وتوقير، يقول الأستاذ: "أتذكر أن خالي كان يجله حتى لكأنه يكاد يبسمل كلما ذكر اسمه؛ أمَّا خالتي فهي مُتَيَّمَة بهذه البيئة، ولأبوَيّ وشيجة عريقـة بـه... فمنذ أن رأيـت النور ألفيت أبوَيّ يرتشـفان من هـذا الينبوع الصافي كأنهما ظمآن برّح به العطش".

وتحـدّث عن صلته بالشـيخ أَلْوَارْلي أَفَه فقـال: "لم يكن ينبس ببنت شـفة إلا حسـبتها إلهامًا من عالم آخَر، فعندما كان يحدِّثنا كنَّا ننصت إليه كأنّ علـى رؤوسـنا الطير، لم يُعهد مـن قبل! لا أدعي أني أحطتُ به فهمًا؛ فيوم وفاته كنت في السادسة عشرة، إنّه الروح التي دغدغت باكورة الروح والمعنى في حياتي، يتنزّل بأسـلوبه لأعي عنه وأفهمه لا سـيما أني صغير لا يبلـغ عقلـي ومداركـي كُنهَـه؛ لقـد عاش عظيمًـا، لكن لم يجـد الكبر إلـى قلبـه طريقًـا، كان يطـوف فـي كعبـة القـرب مـن الله، لا يأبه لشـيء من الأبهة والعظمة، فهو كطير "حوما" ترى ظلّه لكنك لا تراه".

أحـبّ الشـيخ أَلْوَارْلي أَفَه الأسـتاذ فتـح الله أيّما حـبّ، وكان يناديه "تلميـذي"، ولا يرضـى أن يفارقـه بتاتًـا، ولمـا بلغـه أنـه سـيتعلّم العربية

على يد معلّمٍ آخر، استدعاه وقال بوقار ونبرة يخصّه بها: أقسم بالله ثلاثًا أنك لو ذهبت لمُزّقت إِرَبًا إِربًا.

وغدت تلك الحلقة واسطة العقد في عالمه الروحي، ولطالما تجلّت آثارها في روحه، فتربية الأستاذ فتح الله منذ نشأته كانت في بيئة علمٍ تسود أجواءَها ألطاف روحية، إنها بيئة مفعمة بنسائم حياة التكية الروحيّة تارة، وبعلم المعاهد الشرعية تارة أخرى، ذاك هو المناخ الذي نشأ وترعرع وتربّى فيه الأستاذ فتح الله.

مولده وطفولته

ولد الأستاذ فتح الله في ٢٧ نيسان/إبريل ١٩٤١م وفقًا لبطاقته الشخصية، لكن تاريخ ميلاده الحقيقي كان قبيل هذا بنحو عامين أو ثلاثة، فالمواليد في بيئته وعصره لم تكن تُقيَّد على الفور، وكثيرًا ما يشير في ذكرياته إلى أنه ولد قبل هذا.

أمّا طفولته وفتوته فلم تكن كتلك التي عاشها أقرانه؛ فلنشأته مناخ متميز هيّأته له خصائصُ أسرته آنفة الذِّكر، وملازمةُ أهل الذِّكر والعلماء النيّرة بيتهم بسبب حب والده رامز أفندي ضيوف عامَّة وللعلماء خاصة، ومن حديثه عن هذه الفترة: "للعلماء والمشايخ رعاية وحظوة خاصَّة في بيتنا، ومن المحبوبين المشهورين الذين كانوا يأتون بيتنا على الدوام الشيخ أَلْوَارْلي محمد لطفي أفندي، وأخوه السيد وهبي أفندي، وسِرِّي أفندي، وشهاب الدين أفندي... لم أجالس أترابي وأقراني قطّ في طفولتي أو فتوتي، فديدني أن أجلس إلى الكبار وأصغي إليهم، حتى أصبح ذلك خلقًا فيّ، ولوالدي أثر كبير في هذا؛ فحديث هذه المجالس تطرب له الآذان وتستملحه العيون، لا سيما حديث الشيخ أَلْوَارْلي فكلما حدثك قلت: هل من مزيد؟ وربما لم أستطع فهم كلّ ما كان يقول، لكني كنت أحفظه كلّه؛ فأحكيه لأمّي وجدتي وأزواج أعمامي، وهذا له مذاق خاصّ عندي".

وبدأ ابن الرابعة يتعلم القرآن الكريم بالتزام ودقّة عالية، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية في قريته عامين أو ثلاثة، إلا أنه تركها عام ١٩٤٩م

عندمـا عُيِّـن والده رامز أفندي إمامًا في قرية أَلْوَار، ثم اسـتكمل الابتدائية في أرضروم بالانتساب.



مسقط رأس الأستاذ فتح الله في قرية قُورُوجُق بمدينة أرضروم

بـدأ ابـن الرابعـة الصلاة وواظـب عليها، حتـى إنه أعاد فـي الآونة الأخيـرة مـا أدّاه من صلاة فـي مرحلة عمرية معينة قائـلًا: "ربما أخطأت فـي أداء الصلـوات حينئـذ"، وكان لا يتهـاون فـي أداء الصـلاة وهو في المدرسة ولو على مقعده، رغم سخرية أحد معلميه وغضبه؛ أمَّا المعلمة بَلْمـاء هانِم -وهي من إسـطنبول- فكانت على خلاف هذا المعلم، فهي تجيـد فـن الحديث مع طلابها، وتثني على فتـح الله في اجتهاده وتفوقه وأدبـه؛ وجـدت اسـمه ذات مرة فـي قائمة الشـغْب في الفصـل، فقالت لـه في دهشـة "حتـى أنت؟!" والحُـرّ تكفيه الإشـارة ففيها أشـدّ الإيلام، وكانـت هـذه المعلمـة على يقين بـأنّ لتلميذها مسـتقبلًا واعـدًا، وقالت

في هذا لطلابها مشـيرة إلى فتح الله: "كأني أرى الآن بينكم ضابطًا شـابًّا يصول ويجول على جسـر غَلَطَة".

وتحدّثنا عن تلك الأيام وهي فخور بما يقدِّمه الأستاذ فتح الله اليوم، فتقـول: "لم يكن فتح الله كغيـره من الطلاب؛ ولد وقور، مجتهد، محترم، واسـع الأفـق، كنـت أفخر به... لم يكن مشاكسًـا كغيـره؛ كان قوي البنية أبيض، يجلس فى آخر الفصل عند النافذة، ينظر إلى المعلِّم بيقظة وانتباه، لا يتباهـى بنفسـه أبدًا، متزنًا جدًّا، يشـاهد ما يقـع مـن أحداث، ولا يقحم نفسـه فيهـا ألبتـة؛ إذا عزم على أي شـيء فعله، كان رزينًـا، من خلقه ترك مـا لا يعنيـه، يراقـب عن بعـد ولا يُقحم نفسـه، دائم التفكر، بعيـد الغَوْر، الأدب والهدوء شيمته.

أنـا بوصفـي تربوية أفخر به، فلِما قام به من إنجاز في التربية والتعليم في تركيا وأنحاء العالم كله دورُ الرّائد في تعريف العالم كلّه ببلدنا وأمتنا، فما قام به يكفي لكي أفخر به".

ولـم يكـن يقتصر تميزه على أترابه في سـلوكه وأفعاله فحسـب، بل هناك مواقف أخرى تظهر هذا التميز؛ اسـتيقظ ابن السـابعة أو الثامنة ذات ليلة قائلًا: "لبيك يا رسـول الله"، وكانت أمّه بجواره حينئذ، فأذهلها ذلك، ومضـى على هذا ليالي عدّة، فقلقـت وخافت عليه، فأخبرت زوجها رامز أفنـدي؛ وذات ليلـة راح رامز أفندي وزوجه يراقبان ما يجري، فتكلم فتح الله وهـو نائـم، لكنهما لم يفهما شـيئًا مما تحدّث به، فلما اسـتيقظ سُـئل عن هذا، فلم يقل شيئًا، وأغلق الموضوع.

عُنِـيَ الفتـى بالعبـادات منذ نعومة أظفـاره، وتلك ميـزة أخرى، ففي العاشـرة سألته أمه: أين كنت يا بنيَّ، لقد قلقت عليك؟ فقال: في المسجد

يا أمّي، صلّيت سبعين ركعة، فسألته: "وماذا كنت تصلي يا بنيّ؟"، فقال: قضيت الصلوات الفائتة"؛ وفي الليالي المباركة كان يعود إلى البيت متأخِّرًا، فتقول أمّه: "إمام المسجد عاد مبكِّرًا ونام -تشير إلى زوجها- فلماذا تأخرت أنت؟" فيقول: "ما زلْت أصلّي يا أمي". تعلَّم الصلاة في الرابعة فواظب عليها، وكانت حِلْيتَه، فكلما وجد فرصة تجمَّل بها، فكانت قرة عينه في الصلاة.

فـي أرضـروم:
بين طلب العلم والمعاناة

حفـظ الفتـى القرآن الكريـم عـام ١٩٥١م، وكان إذا حفظ وِردَه راح يسـاعد أمّـه في البيت أو عكف على الكتـب يقرأ ويقرأ، لقد قرأ كتب أبيه كلّها لا سـيما كتب حياة الصحابة الكرام؛ فهو يتقن قراءة الكتب العثمانية منـذ صغره، وفي هذه الفترة أخذ عن والده اللغة العربية والفارسـية، ولما حفـظ القـرآن، أخذ التجويـد عن الحاجّ صدقي أفندي في "حسـن قلعة"، ولـم يكن له مسـكن هناك؛ فكان يمشـي كلّ يوم مسـافة ٧-٨ كليو مترات من أَلْوَارْ إلى حسن قلعة.

ألقى الأسـتاذ فتح الله في تلك الحقبة أول موعظة، فكانت نموذجًا مهمًّـا كشـف عن غزارة علمه ومهارته الفذّة فـي الخطابة؛ كان أبوه رامز أفندي يعظ الناس في رمضان بعد الإفطار في مسـجد قرية أَلْوَارْ، فتأخر ذات ليلـة، وكان فتـح الله يغدو إلى المسـجد مبكّرًا، وعمره آنذاك أربعة عشـر عامًا؛ فاجتمع المصلـون، فإذا بوجيه من أَلْـوَارْ يحظى باحترامهم جميعًـا يُدعـى كاظـم أفندي ينظر إلـى الفتى فتـح الله، فتلتقـي أعينهما، فينهض كاظم أفندي ويُلبس فتح الله جبة رامز أفندي وعمامته في دهشة غمرَت المصلّين وفتح الله أيضًا؛ فسنّه أصغر من أن يقف مثله ليعظ هذا الحشـد، بل إنّه لم يكن يطول كرسـي الوعظ، فحملوه وأجلسـوه عليه؛ ومـا إن شـرع في الموعظة حتـى أخذت الجماعة -التي لم تجد تفسـيرًا لتقديم هذا الفتى لكرسـيّ الوعظ- تنصت إليه بذهول، وكم عجبوا لهذا

الصوت الذي يدوِّي من على كرسيّ الوعظ، فكان لموعظة الفتى أبلغ الأثرعلىالجماعة.

أتم الفتى دراسته في أَلْوَارْ ولمّا يقرّرْ والده رامز أفندي ماذا سيفعل، فقال الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه: علينا أن نعلِّم هذا الفتى، فبدأ فتح الله يدرس اللغة العربية في أرضروم على يد سعدي أفندي حفيد الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه؛ ورغم أنّه شابّ مستقيم نزيه يكبر فتح الله بـ ٥-٦ سنوات إلا أنه كان قصير الباع قليل الخبرة في أساليب التدريس؛ فلم يكن ليروي ظمأ فتح الله؛ وكان فتح الله يتردد حينئذ على قرية أَلْوَار لئلا ينقطع عن مناخ الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه.

وصف الأستاذ فتح الله نظام مذاكرة الدروس فقال: أذاكر دروسي الأول فالأول، أقضي الليل في المذاكرة ولا أنام إلا قليلًا، أستضيء بشمعة، فلا حيلة لي سواها، ولا تمر ليلة دون أن يمرّ المعلم بي يَتَفقدني خفية، فيسعد بي كلما رآني أذاكر.

توفي جدّه شامل أغا وجدته السيدة مؤنسة في ساعة واحدة عندما كان يدرس في أرضروم عام ١٩٥٤م، فحزن لفقدهما كثيرًا، يقول: "بكيت أيامًا وليالي، دعوت ليل نهار: اللهم ألحقني بجدي وجدتي لأراهما... لم أعْتَدْ على فراقهما حتى الآن، فكلما تذكرت واحدًا منهما تلظى قلبي على مثل الجمر، وتأثّرت كثيرًا"؛ وفي هذا ما يبين عن منزلة جدّه وجدته وأهميتهما في حياته.

وقعت حادثة أخرى في هذه المرحلة الدراسية، فزلزلته؛ توفِّي الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه... انقشعت سحابة العناية التي أظلّت حياته العلميّة والروحية... وهو يصف وقع وفاة الشيخ عليه، فيقول: "كنت في ذلك اليوم في أَلْوَار،

وأظنّه وقت الضحى، وبينما كنت أستجمّ متكئًا على أريكة في ردهة المنزل، إذا بي أسمع صوت هاتفٍ، إنه ليس بنداء بل هو صراخ! صراخ أصك مسمعي بقوله: "مات أَفَه!"؛ ففزعت، وأخذت معطفي، وهُرِعت إلى بيت الشيخ، ولما بلغتُ البيت باغتتني الفاجعة، فالشيخ أَلْوَارْلي أَفَه مات حقًّا حقًّا... فقد ترك فراغًا أنَّى له أنْ يُملَأ من بعده! أيام وشهور من الأنين والنحيب... أما مقلة الروح فما جفت مآقيها حتى اليوم".



قبر شامل أغا جد الأستاذ فتح الله وجدته مؤنسة هانم في قرية قُورُوجُق بمدينة أرضروم

في هذه الفترة رَحَل والد الفتى فتح الله عن قرية أَلْوَار، ليصبح إمامًا برهةً من الزمن في قرية "أَرْتُزُو".

واستقرّ الفتى بمسجد "قُرْشُنْلُو" بمدينة أرضروم في مدرسة كان يُدرِّس فيها سعدي أفندي من قبل، مدرسة صغيرة سقُفها خشب، يقيم فيها خمسة طلاب أو ستة؛ وقد عانى فتح الله كثيرًا، ورغم المشاق التي جابهته

إلا أنّه واصل طلب العلم، يحكي عن تلك الفترة فيقول: "كان لدينا موقد غاز، نطهو طعامنا ونأكله في غرفة نومنا؛ كان الطلاب الموسرون يغتسلون عند الحاجة في حمامات "قِريق جَشْمَه"، أمّا الفقراء فأحيانًا كانوا يحصلون على تذاكر مجانيّة، وإلا تجشموا الأمرَّين، وأنا منهم، فكم كنت أغتسل في المراحيض في الشتاء القارس، فتلتصق قدماي بالجليد، فأغسل واحدة وأضعها على الأرض ثم أغسل الأخرى، إن أَنْسَ لا أنسى الماء البارد وأنا أصبُّه على رأسي، كنَّا حقًّا في ضنك وضيق"؛ ولهذا اضطر الفتى فتح الله لقبول مكافآت على ختمه القرآن الكريم أثناء دراسته، ولطالما ضاق بهذا الأمر، كان يرى أن ما اضطر لأخذه لاستكمال دراسته وهو شابّ ضرورة، والأصل عدم الجواز؛ فلما عُيّن إمامًا وتقاضى راتبًا ردّ ما أخذه وهو في أرضروم، وأرسله مع أخيه حسبي عندما جاء يزوره.

ويسترعي الانتباه ما ذكره حافظ سعدي قايخان زميل الأستاذ فتح الله عن الحياة في المدرسة بجامع قُرْشُنْلو، يقول:

"التحقت بمدرسة قُرْشُنْلو عام ١٩٥٣م، كان الأستاذ فتح الله آنذاك طالبًا فيها، فتعرفت عليه، كانت المدرسة يومئذ مهملة، ومن يرعى الطلبة هم قلّة من ذوي الغيرة على الدين؛ لم يكن يُطهَى في المدرسة سوى البطاطس، وكانت كل غرفة تطهو طعامها بنفسها بالتناوب، وكان الأستاذ فتح الله هو من يطهو دائمًا في غرفته، وكان يفتح شهيتي عند كلّ طعام ويقول: "طهوت لك طعامًا، ستأكل من ورائه أصابعك"؛ فنظن أننا سنأكل طعامًا مختلفًا هذا اليوم، فإذا بالبطاطس أمامنا مرة أخرى، إلا أنه كان يطهو البطاطس كلّ مرة بطريقةٍ جديدة، يخدم نفسه بنفسه، لم أره قطّ يأمر أحدًا أن يفعل له شيئًا، يخدم الآخرين ويساعدهم ما استطاع.

كان ينتقد ما رسَب لدى العامّة من أخطاء بلا تردد ولا وجَل، لا سيما ما يبالغ فيه من حكايات يحبّ الناس قراءتها وسردها، تجده يفنّدها على الدوام، ويقول: إنها أكاذيب؛ كنا نستغرب مواقفه حينئذ؛ وتمضي السنون وها نحن نوقن أنه كان على حقّ.

لا أعلم أحدًا مثله يحافظ على هيبة العلم؛ كنا إذا حضرت جنازة يلتمس الناس منّا أن نقرأ مقابل شيء من المال، فكنَّا ننتظر هذا اليوم بفارغ الصبر؛ فمعظمنا من الفقراء المعوزين، لكن الأستاذ فتح الله لم يكن ليذهب رغم شدة عوزه، بل كان يحاول منع من يذهب، وأحيانًا كان الجدل يحتدّ ويحتدم في هذه الأثناء حتى لَكَأنَّه شِجار.

ملابسه نظيفة جدًّا، ولا يسمح لأحد باستخدام أغراضه؛ فاهتمامه بأغراضه لا يخفى، فما كنّا نهمله كان هو يعيره اهتمامًا جمًّا؛ وكان إذا رأى شيئًا جديدًا لم يأل في تعلّمه تفصيلًا، وله ميزان حسّاس في التعرف على الناس.

كان موجِّه المدرسة حسًّا ومعنًى، ولا أحد يتطلع إلى أن يقارن نفسه به في هذا، فنحن جميعًا أذعنَّا بذلك ولم يفرِضه علينا، كان مهيبًا تستحوذ هيبته على من حوله وتفرِض عليهم احترامه، لا طاقة له بتحمل الظلم ألبتة، فله موقفه ممن يظلم أيًّا كان الظالم، وكان يحثّنا أيضًا على فعل هذا".

تلك الشمائل جاء ذكرها في يوميّات الأستاذ حاتم صديق الأستاذ فتح الله، وزاد عليها تواضعَ الأستاذ فتح الله وعنايته البالغة بالنظافة، يقول: "كنّا نحضر الجنائز لنقرأ القرآن بشيء من المال، أما فتح الله فكان يأبى، طلبنا العلم أوَّلًا عند سعدي أفندي حفيد الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه محمد

لطفـي أفنـدي، فلما التحـق بالجيش تحوّلنا إلى الأسـتاذ عثمـان بَكْتاش؛ فعرّفنـي والـدي على الأسـتاذ فتـح الله منـذ أن التحقت بالمدرسـة، قال لـي: "هـذا فتح الله بـن رامز أفندي، سـيكون عونًا لك"، قـال هذا وذهب وكأنه يسـتودعه إياي؛ فكنت أذهب معـه إلى الدروس حتى بعد أن انتقلنا إلى الأستاذ عثمان؛ ولا أتذكر أني أديت صلاة بدونه قطّ، كنت ظلّه الذي لا يفارقه أينما ذهب، كان الأستاذ فتح الله عاكفًا في المدرسة يومئذ، لكنّه لم يكن في عزلة عن العالم الخارجيّ.

كانت النظافة من أبرز شـمائل الأسـتاذ فتح الله أثناء دراسته، فملابسه نظيفـة دائمًا، وله فضل عناية بنظافة مسـكنه، بينما كاد مفهوم النظافة يكون معدومًا في المدارس يومئذٍ، رأيته مِرارًا يشمر عن ساقيه، وينظف المراحيض، وكان ينظف داخل المدرسـة وخارجها جيّدًا، له حسّ مرهف، فهو يشـمئز من أدنى شيء، إلا أنّ هذا لم يحُل دون تنظيفه لمراحيض المدرسة.

لم أفارقه أيّام الدراسـة حتى رحل إلى "أَدِرْنَه"، وكان يترك المدرسـة أحيانًا ويذهب، فكنت أتوسـل إليه كثيرًا ليعود، وأحيانًا كنت آتي بسـريره دون علمه، فإن لم أقوَ على شيء من هذا حملت سريري ولحقتُ به أينما ذهب؛ كان يعظ هنا وهناك، فأنتظره حتى ينتهي لنعود معًا إلى المدرسـة، قضينا أيامًا كلّها ذكريات جميلة، بل لعلّها أجمل أيام حياتي".

قضى الأسـتاذ فتح الله مدة في مدرسـة مسجد "قُرْشُـنْلو" ثم غادرها إلى مدرسـة مسـجد "كَمْخان" إثر خلاف مـع سـعدي أفندي، فما انقطـع عن طلب العلم رغم كلّ المشاقّ.

فـي هذه الفترة وقعت واقعـة أظهرت مدى الاحترام والأدب ورهافة الحس لدى ابن الخامسـة أو السادسـة عشـرة: "كانت المدرسة التي أوى

إليها مثل مدرسة "قُرْشُنْلو" لا تتسع إلا لخمسة طلاب أو ستّة، فإن طرقهم ضيف لم يتسع المكان للنوم؛ يحكي الأستاذ فتح الله ما حدث معه وهو يحاول أن ينام في مكان ضيّق، يقول: "جئت لأنام فإذا بقدمَيّ بمحاذاة رأس أحد زملائي، فكرهت ذلك؛ لما أنه لا يليق بزميلي، أمَّا الجهة الأخرى ففيها الكتب، ويستحيل أن أمُدّ قدمَيّ تُجاه الكتب، والجهة الثالثة هي جهة القبلة، فليس أمامي سوى الجهة التي إليها قرية قُورُوجُق لأمدّ بها رجلي، فخشيت أن أمدّها ويكون أبي هناك، فأسيءَ بذلك أدب معاملة الوالد؛ فقضيتُ عدة ليالٍ مستيقظًا لا أنام؛ وأشير هنا إلى أني لم أمد قدميّ في حياتي جهة قرية قُورُوجُق مسقط رأس والدي ومثواه، وهذا من معاني احترام الأبوين عندي".

استمرَّ الأستاذ فتح الله ستة أشهر في تلك المدرسة، واضطر لمغادرتها عندما ضم مؤذن المسجد نصيب المدرسة لبيته، ثم التحق بمدرسة "طَاشْ مسجد"، وسرعان ما غادرها لضيق بعض من فيها به.

واجه الأستاذ في رحلته العلميّة عقبات كثيرة بسبب السَّكن، فعانى أيّما معاناة؛ إذ من المستحيل على شاب عزَب إذ ذاك أن يستأجر منزلًا في أرضروم، ثم عثر على كوخ صغير لحذَّاء التحق بالجيش، فأبرم معه عقدًا، لكنّ الحذّاء نقضه، ويصف الأستاذ فتح الله الموقف فيقول: "وقفت على قارعة الطريق، حقيبتي بيدي، ولا مأوى لي".

وكان الفرَج في كوخ صغير آيل للسقوط في مسجد الأحمدية بجوار مسجد مُراد باشا، كان المسجد قد أُهمِل، فلا أحدَ يرتاده، وغدا محرابه الذي فيه من التجاويف الكثير مأوى صغيرًا بعد أن قُسّم منذ حين، فبنى الأستاذ فتح الله وزميله "ذو النور" جدارًا، ورفعاه قليلًا، وأحضرا مدفأة

صغيرة، وهكذا حُلَّت مشكلة المأوى؛ وما زال الأستاذ فتح الله يقيم ههنا أثناء الدراسة حتى لحِق بأدرنه، ورغم تحذير كثيرين لهما من أن جدارهما عُرضة للسقوط في أي لحظة؛ لم يصغيا إلى أحد، وأنهى الأستاذ فتح الله دراسته، والكوخ قائم، وظلّ يؤوي كثيرًا من الطلبة أمدًا بعيدًا بعدهما.



مدرسة مراد باشا التي درس فيها الأستاذ فتح الله كولن

ترك الأستاذ فتح الله سعدي أفندي وذهب إلى الأستاذ عثمان بَكْتاش، فدرس عليه قرابة عامين وهو من هو في النحو والصرف، والفقه وأصوله، وغيرها من علوم الشريعة، فمفتي المدينة كان يستدعيه إلى مكتبه ليستشيره كلما عرضت له نازلة. ولما رأى في تلميذه الجِدّ والاجتهاد نقله إلى مستوى أعلى، وقال: لا ينبغي أن نشغلك بهذه الدروس الابتدائيّة، عليك بكتاب الملا جامي[١٢]، وراح يدرس في هذا المستوى مع من لهم قدَم سبق في العلم والتزكية أمثال الأستاذ محمد قِرْقِنْجي.

(١٢) كتاب "الفوائد الضيائية" في الصرف والنحو، لنور الدين عبد الرحمن بن أحمد الأديب الفيلسوف المشهور بـ "الملا جامي" (١٤١٤-١٤٩٢م).

كانت علاقته بمدرسته وطيدة غير أنه لم يُغفِل الزوايا بتاتًا، فتربيتها ظاهرة عليه في مراحل حياته كلّها منذ أن بدأ مع الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه، ولما توفِّي لحِق بزاوية الشيخ القادري راسم بابا، فعُنِيَ به الشيخ كثيرًا، حتى راجت إشاعة بأنه سيزوجه ابنته، فترك الزاوية ولم يعاوِد؛ لكنه استقام على آدابها وتربيتها، فالتصوف عنصر رئيس في حياته وفكره، يقول: "اختمرت روحي في الزوايا منذ الصِّغر، وما زال أثر المدرسة والزوايا في حياتي سواءً كَكِفّتَي ميزان".

وكان يستثمر وقته بعد الدراسة جيِّدًا، فنسيج حياته في منتهى الإحكام، كان يمارس الرياضة؛ فهو نشيط مَرِن، واعتاد زيارة مقابر الصالحين بأرضروم في جهمة الليل دائمًا، يقرأ القرآن على الموتى هناك؛ كان فتًى مقدامًا لا يهاب شيئًا، يعود من المقابر في غَيْهَب الغَسق فيمر بأماكن يخاف الناس منها.

وله فضل عناية بملابسه في شبابه، بل هذا دأبه في حياته كلِّها، فكان لباسه نظيفًا أنيقًا رغم الصعوبات، يقول: "كثيرة هي الأيام التي لم أجد فيها طعامًا، لكني لم ألبَس بنطالًا دون كيّ قطّ، ولا حذاءً دون تلميع، وإذا لم أجد مكواة وضعت بنطالي تحت الفراش، فإذا به كالمكوي من الثِّقل؛ وربما يعجب أصدقائي من هذا، ولا يستطيعون أن يوفّقوا بين ملازمتي للزاوية وبين زيادة الاهتمام بملبسي وتَطوافي بنشاط وانفتاح، حتى إن أحد أصدقائي غضب لأني لا ألبس البنطال إلا مكويًّا، وقال لي كلمةً لا أنساها أبدًا: "اتقِ الله يا أخي"، ولم أفهم إلى اليوم ما علاقة التقوى بكيّ البنطال".

قد حفظ الله للشابّ في فتوته عِقْد الروح الذي نشأ وشبّ فيه، فما خلعه ولا خرج عنه؛ كان في تلك الفترة قد حضر حفل زِفاف مرَّتين:

فبينما كان يشاهد في الأولى الثمالى جاءه أحدهم فلطمه وطرده قائلًا: "ماذا تفعل هنا؟!"؛ وفي الثانية لما رجع طرق الباب فلم يسمعه والده مع أنه خفيف النوم، فبات مرغمًا على الانتظار في الثلج حتى الصباح؛ فكانت له في هاتين الواقعتين عبرة، فغدا في شبابه حذِرًا أيّما حذر إزاءَ ما يفتح أمامه بابًا إلى المعاصي.

عرف الفتى فتح الله "رسائل النور"(١٣) وهو طالب بأرضروم، كان الأستاذ محمد قِرْقِنْجي قد دعاه إلى دروس رسائل النور، يوم أن زار "مظفَّر أَرْسْلان" أرضروم في طريقه إلى سِيواس وأَرْزِنْجان، وكان الأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورسي كلّفه بهذه المهمّة: "طوِّفْ في الشرق"؛ أُخِذَ الفتى بما سمعه في أول درس وبمَن حضر أيضًا لا سيما أنّه رأى فيهم حياة الصحابة خاصةً الصِّدق والزهد، فتأثّر كثيرًا بهذا، ولازم الدّرس رغم اعتراض أستاذَيْه سعدي أفندي وعثمان بكتاش، يقول: "كان زهد طلاب رسائل النور يفيض عليّ بمشاعر متنوّعة، علاوة على تعمقهم في العبادات، فصلاتهم ودعاؤهم غير ما عهدتُه من غيرهم"، وبلغت سعادته أوجها عندما أقرأَه الأستاذ النُّوْرسي السلام في إحدى رسائله إلى أرضروم.

كان لرسائل النور وقرَّائِها بالغ الأثر في حياته، ففي ليلة مباركة بمسجد لالَهْ باشا صلَّى العشاء، وحضر دعاء ختم القرآن ألف مرة ومرة(١٤)، ثم صعد إلى مقصورة المسجد يتضرع ويدعو الله أن يُلْحِقَه

---

(١٣) كليات رسائل النور التي ألّفها بديع الزمان سعيد النورسي تضم تسعة أجزاء سجل فيها الأستاذ النورسي كل ما استلهمه من نور القرآن الكريم من معاني الإيمان وأملاها على محبيه في ظروف عسيرة بقصد إنقاذ إيمان الناس في هذا العصر العصيب بإحياء معاني القرآن ومقاصده في النفوس والعقول والأرواح.

(١٤) عادة سنوية في أرضروم يختم الناس فيها القرآن معًا ألف ختمة وختمة، ثم يدعون عقب تلك الختمات في مسجد جامع بالمدينة.

بكتائب طلاب النور، يقول: "ما إِن صليت حتى وجدتني قد امتلأت شوقًا ولوعة ولهفًا لا يوصف، تضرعت إلى الله بكل كياني: "اللهم لا ملجأ لي إلا إليك، فتقبلني فيمن تقبّلت من هؤلاء الإخوة، واجعلني منهم، وحبِّب الخِدمة إليّ، لأهب روحي لها، ولا تجعلني بينهم عابر سبيل". ابتهلت تلك الليلة حتى السّحر، بكيت وجأرتُ وفاضت عيناي حتى الصباح؛ -ما وُفّقتُ الدعاء بمثل هذا الحال في عمري إلا مرة أو مرتين- وما دعوت الله ﷻ في ذاك اليوم بغير هذا، وما رغبت إليه بشيء سوى قبول الدعاء". وفي صبيحة تلك الليلة التقى بزميله في الدراسة الأستاذ حاتم عند باب المسجد، فقصّ عليه الأستاذ حاتم رؤيا رآها بالأمس، وكأنها بشرى بقبول الدعاء، قال: "رأيت الأستاذ النُّورسي الليلة، وكان يرسل لك رسالة ومعها جرةٌ مملوءة بالجوز".

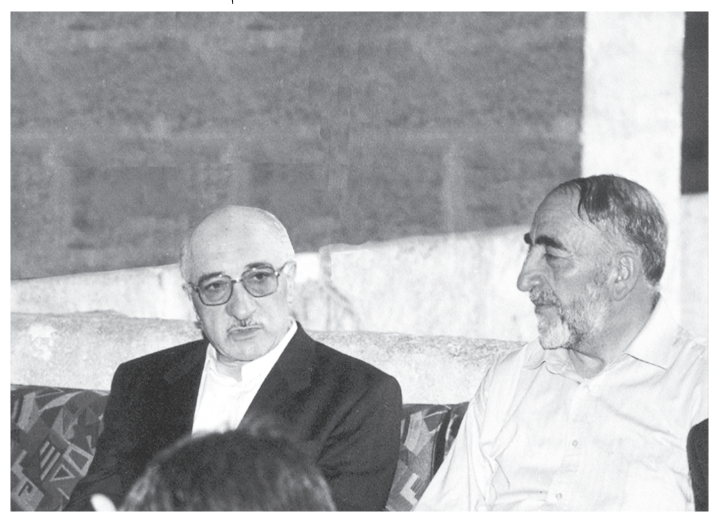
ورحل من أرضروم إلى مُدن أَماسْيا وطُوقات وسِيواس عام ١٩٥٧م ينصح ويعِظ؛ فكانت تلك فرصته للتعرف على أهل الأناضول عن كثَب، ثم عاد إلى أرضروم مرةً أخرى.

أدرنـه:
بـذرة فـي رحـم الأرض

يحبِّذ والد الأسـتاذ فتح الله أن يعمل ابنه خارج أرضروم بينما كانت أمُّـه تضـنّ به وتكره فراقه، فتَقرّر أن يذهب إلى أدرنهْ حيث أقارب والدته، ومنهم حسين طُوب، وهو إمام هناك؛ اتجه فتح الله إلى أنقرة أوَّلًا، ومكث فيها بضعة أيام في منطقة "الحاج بَيْرام ولي" الطيبة وأحبّها حبًّا جمًّا، وزار النائـب بمجلس الشـعب السـيد مصطفـى زَرَن أحد أقـارب والده، وبات عنـده ليلـة؛ وكان في تلك الأيام يتابـع مسـابقة وزارة الأوقاف للوظائف، ثم اتّجه إلى إسـطنبول، ونزل في فندق "أرضروم" بسِـرْكَجي الذي يسكنه أبناء مدينته وبات فيه بضعة ليال؛ ثم وصل أدرنه ذات ليلة، فنزل في فندق عند مسـجد "الشـرفات الثـلاث" الذي غدا إمامه بعد ذلـك؛ وفي الصباح قابل الأستاذ حسين طوب، فذهب به إلى المفتي إبراهيم أفندي، لكنه رآه شابًّا فاستهان به، وقال: لا بد أن أمتحنه، ففعل ووظّفه وقال: "ما زال يافعًا، لكنه أجاد تكوين نفسه".

وفـي رمضـان تكلِّـف دار الإفتـاء بأدرنـه طـلاب المعاهد الشـرعية وحفظة القرآن الكريم من المحافظات المجاورة بالإمامة، ويتعهد الأهالي بالمسـكن والمطعم وشـيء من المال، فإذا انقضى شـهر رمضان عاد كلٌّ إلـى مسـجده، ويُعْرَف هذا بنظـام "إمامة رمضان"، فعُيِّن الأسـتاذ فتح الله إمامًا في شـهر رمضان في مسجد اسـمه "آقْ مسجد (المسجد الأبيض)"؛ فأُعجِب المصلُّون بما رأوا في خطابته وعلمه أثناء دروس ما بعد الصلاة؛

فلما انقضى شـهر رمضان ذهب بعض وجهاء الحيّ إلى الأسـتاذ حسـين طـوب، وطلبـوا منـه أن يسـاعدهم فـي اسـتمرار الأسـتاذ فتـح الله بهـذا المسـجد، ففعل، ويومئذ بدأت رحلة الأشجان والمعاناة، ولم تمض مدة وجيزة حتى غدا معروفًا في أدرنه كلها بوعظه ودروسـه، شـابّ يافـع لكنّه أثّر بوقاره وأخلاقه أيَّما تأثير في مَن جلس واستمع إليه؛ نعم كان الأهالي يمدّون يد العون لأمثاله إلا أنه أبى أن يأخذ منهم شيئًا.



الأستاذ فتح الله والأستاذ حسين طوب في أدرنه يوم مسابقة المصارعة بقِرْقْبِنار

وفـي تلـك الفتـرة عقـد امتحـان الوعـاظ، فسـافر الأسـتاذ فتح الله إلى أنقرة، ومكث بها خمسة عشر يومًا، ثم عاد إلى أدرنه، فأبلـغ مصطفى زَرَنْ دار الإفتـاء بأدرنـه بنجاحـه فـي الامتحـان؛ فتقـدم الأسـتاذ فتح الله بطلب لوزارة الأوقاف بأنقرة، ليكون مفتي أدرنه، فرُفِضت لأنه لما يخدم العسـكرية بعد، وعُين إمامًا لمسجد "الشرفات الثلاث"، وسرعان ما صاغ لنفسـه عقـد حـبّ واحترام هنـاك؛ ولما كان مسـجد "الشـرفات الثلاث" في مركز المدينة كان يأتيه وجهاء أدرنه وبعض المسـؤولين أيضًا؛ ويعلِن

الأستاذ فتح الله بدايةً عن موضوع موعظته؛ وكان في معرفته وإحاطته بتفاصيل الموضوع -في الاقتصاد أو العدالة أو الحقوق أو علم الاجتماع أو غيرِها- ما أكسبه تقديرَ المصلّين جميعًا.

استأجر منزلًا في زقاق مسدود، وذلك في فصل الصيف، فكانت النسوة يجلسن على أرصفة الزقاق من الضحى حتى جهمة الليل؛ فكان يضيق ذرْعًا بذلك عند ذهابه إلى المنزل وإيابه منه، وأبدى بعض من يوقّره من أهل الحي رغبتهم في مصاهرته؛ فغادر الحي إلى نافذة في مسجد الشرفات الثلاث، عرضها متران، وعمقها متر ونصف، فوضع بها أمتعته: كتبه، وبطانيتين، وطبقين، وكوبًا، وملعقة؛ يقول: "تجافيت عن كل ما يبعث على الكسل، فبدأت باتخاذ ما يلزم لتحقيق هدفي على أتمّ وجه".

لم يتخل الأستاذ فتح الله عن سمت حياته هذا حتى في قرّ أدرنه القارس، وزهِد في أكل ما له دَسَم، فعَكَف على العلم، وعُنِيَ بمن حوله. كانت الحياة الروحيّة في أدرنه تكاد تقفر؛ فهجر النوم واعتزل في نافذته، وراح يبني "دنياه الصغيرة".

ويذكر صديقه الأستاذ حاتم مثالًا لتربية النفس عنده، يقول: "كثيرًا ما كنت أزور الأستاذ فتح الله في مرحلة رياضة النفس؛ فلم أره يأكل، وإذا برّح بي الجوع قال: هناك بعض الطعام، كُل منه، فأدعوه لنأكل معًا، فيأبى؛ وأحيانًا كنت أقلِّده فلا آكل؛ وغالبًا ما كنت آكل ما في المِزوَد من طعام. وبينما هو في حديقة المسجد ذات يوم إذا برائحة البيض المقلي تزكم الأنف، وسرعان ما تذكر أرضروم، والبيض الذي كانت تطبخه له والدته في التنُّور، وبينا نحن على ذلك إذا بالسيدة خَيْرِيَّة -عجوز صالحة ذات غيرة على الدين، كان الأستاذ فتح الله عندها كأحد أبنائها-

قـد طهـت بيضًا، وقدَّمته للأسـتاذ فتـح الله، وكان بطني يقرقِـر، فانتظرت أن يدعونـي لنأكل، ومضى وقت طويل ولم يفعل، فلم أتحمل فقلت: هيا نـأكل هذا البيض قبـل أن يبرد، فقال: كُلْ، واترك لـي منه، فإني أحتاجه"، فمـا أكل رغـم إصراري عليه، فأكلت منه؛ وأمضى الأسـتاذ فتح الله ثلاثة أيـام يسـخن فيهـا البيـض ويشـمّ رائحته ثـم ينتحـي جانبًا مـن الحديقة، ثم يردّ البيض دون أن يأكل منه لقمة، ثم عرفْتُ أنه كان يروِّض نفسه بشمّ مـا تشـتهيه دون أن يأكله". هذا تأويل الأسـتاذ حاتم، وربمـا أنه فعل هذا ليسلي نفسه بشيء يذكّره بوالدته.

عُرض عليه الزواج كثيرًا في أدرنه سـواء من أقاربه كالأسـتاذ حسين طـوب أو مـن أصدقائه، فأبى، وكم عُرِض عليه في سـنوات لاحقة، فكان يأبى، ولعل تفسير هذا في قوله: "لا يعلم نيتي وما في أعماق قلبي إلا الله، فضّلت أن لا يشغل عقلي شيء سوى خدمة الدين والدعوة، ميزاني دقيق وحسّاس فربّما تضيق به النساء، وهذا أيضًا كان له أثر كبير في عزوفي عن الزواج؛ قرّرت منذ البداية أن أهب نفسي لخدمة الدّين".

حياته في الشـريعة كحياة السـمك فـي الماء، ضبطَها بميزان الشـرع وآدابـه؛ مثـلًا: لمـا وصل أدرنه كان أول ما قام بـه التحقُّق من طريقة ذبح الحيوانات، فلما رآها مخالفة لأحكام الشرع ما أكل فيها لحمًا قطّ.

مثال آخر يكشف دقة موازينه يومئذ، يحكي الأستاذ حسين طوب أنه رآه يشـتري الشـمع من ماله ليضيء به نافذة المسـجد التي يسكنها، ليقرأ في الليل؛ فقرر أن يتخذ له مصباحًا يضيء النافذة، وأقلّ ما في هذا أن يرفـع عنـه المعاناة أثنـاء القراءة، فأتـى بالكهربائيّ، لكن الأسـتاذ فتح الله رفض قائلًا: إنها كهرباء المسجد، والوقف هو من يدفـع، وهو لا يحل لي".


نافذة مسجد الشرفات الثلاث التي أقام بها الأستاذ فتح الله

أنهكَته ظروف الحياة الشاقّة، فضعُف ومرِض، وقضى خمسة عشر يومًا في المستشفى؛ وتضاعفت بُرحاؤه لما بلغه مرض والده؛ ففاضت مشاعره على لسانه بأشعار تحكي أشجانًا كابدها في تلك الفترة.

لقي الأستاذ فتح الله ما لقي من افتراء الحسّاد والحاقدين ومكائدهم التي حاكُوها له، عِلاوة على تدهور صحته، فكانت حفاوة الناس بوعظه وتقديرهم له، وحبّ التجار الجمّ واحترامهم البالغ، يثير حفيظة حسّاده؛ فتآمروا عليه أيام الانتخابات المحلية، واتهموه بأنّه خالف الصمت الانتخابيّ؛ فاقتحمت الشرطة المسجد وألقت القبض عليه، وفي الطريق أخذ أحد أفراد الشرطة يشتمه بقبيح الكلام، فردّ على الشرطيّ وألقمه حجرًا، فهو لا يتحمل شيئًا من الإهانة، ولا يتهاون في عزته وكرامته؛ وكان مدير الأمن "السيد رسول" يحضر مواعظه ويعرفه حقّ المعرفة، فبرّأه وأفرَج عنه؛ يقول الأستاذ فتح الله: "هذا أول اعتقال لي، فامتعضت كثيرًا، وأويت إلى نافذتي حزينًا"، كانت تلك بداية مؤامرات ما زالت تطارده؛ وكلما حصحص الحق ظهرت براءته كما في المرة الأولى وعاود حياته الخاصة مرةً أخرى.

ودافع عنه ورعاه وردَّ عنه افتراءات الحاقدين وإفكَهم مفتي أدرنه بعد انقلاب ٢٧ مايو/أيار ١٩٦٠م الأستاذ "يَشار طُوناكُور" الذي أسهمت

مواعظـه فـي تجدد الحيـاة الدينية في أدرنه؛ لِما رأى في الأسـتاذ فتح الله من علمٍ وجدّ، وراح يذكر مناقبه وعلمه في أروقة الحكومة؛ فالأستاذ يَشار هو إحدى نقاط التحول الجوهرية في حياة الأستاذ فتح الله، وكان الأستاذ فتح الله يكنّ له كلّ احترامٍ وتقدير، فكان يعظ في مسجد الشرفات الثلاث قبـل صـلاة الجمعة -كما هي العادة في مسـاجد تركيـا- ثم يدرك الصلاة في مسجد "السليمية" ليستمع إلى خطبة الأستاذ يَشار.

إمـام ذو عشـرين ربيعًـا إلا أنّ وضوح أسـلوبه في الحوار شـهَرَه في أدرنـه، لـم يقتصر كالأئمة على الوظيفة فحسـب، بـل كان يجول ويحاور الفئات كافّة بدءًا بالمحافظ حتى رئيس الوحدة العسكرية.

شخصية فعّالة نشِطة تحمل صاحبها على فعل كلّ ما يخدم الدّين؛ شهد هجمات شنّها الإعلام على الإسلام حينئذ، فكان يقدر ما بُذِل لمواجهتها، ويساند من يواجهها ويدعمهم بما تيسّر، يقول في مذكراته عن تلك الفترة: "كنت أدّخر مالي وأشـتري به كتبًا مفيدة لأوزِّعها حسبةً، فكانت تأتي أدرنه نسخة أو نسختان من مجلة "بُيوك دوغو (الشرق العظيم)"، فكنت أشتري منها لتصبح خمسًا وأوزعها؛ أما مجلة "حُر آدم (الإنسان الحُرّ)" الأسبوعيّة، فكان يأتي منها خمسة وعشرون، فبلغتُ بها أربعين؛ وهي صوت الإسلام حينئذٍ، ومثلها "بيوك دوغو" و"سبيل الرشاد"... أجالس من سأعطيه المجلة، ونشرب الشاي ثم أعطيه، فالخدمة في مناخ كهذا شاقّة جدًّا، فهذه أشياء لا عهد لأحدٍ بهـا، كنت أخفي مجلة "بيوك دوغو" بين صفحات جريدة "الجمهورية"(١٥)، وأضعهـا فـي جيبـي حتى أصل إلى مكان تسـليمها، فأسـلمها خُفيـة بعيدًا عن الأنظار، كان لا بُدّ من هذا ليستمر العمل.

(١٥) جريدة يساريّة يوميَّة تركية بدأت تصدر في ٧ مايو/أيار ١٩٢٤م، وما زالَت.

في تلك الفترة كان نجيب فاضل[١٦] ينسج "نسيج الإيديولوجيا"[١٧]، وكانت كتابات "بَيامي صفا"[١٨] يلفها الغموض بالنسبة لقراء تلك الفترة، ورغم ذلك كنت أقرؤها؛ كان الإسلام هو شغلي الشاغل والعالم المثالي الذي تزدان به أحلامي، فظاهري يوحي أني في عزلة، ولكن الزوايا جعلتني منفتحًا أجيد فنّ العلاقات الاجتماعيّة حيثما حللت؛ ولمجالستي الكبار الفضل في مهارة التحدث مع الآخرين بسكينة وطمأنينة، فكنت أجالس وأحادث وأحاور الفئات كلّها، خاصّة المشايخ وكبار العلماء، فنَمت لديّ مهارة المحادثة، فكنت أبلّغ وأنصح بسهولة ويسر أيّ شخص مهما كان مستواه الاجتماعيّ؛ وفي الوقت نفسه حالَ الحياءُ الشرقي بيني وبين الجرأة على الكبار، فكنت أجالسهم وأحاورهم وقتًا طويلًا بمنتهى الأدب، وأكاد أكون عرفت وجهاء أدرنه كلهم، ولمّا أبلُغ العشرين؛ وكنت أحاول أن أوجّه ما منحني الله من قوة روحية في الطرق الإيجابية، فكنت أجالس الناس في المقهى، فنشرب الشاي، وأحاول أن أتحدّث إليهم عن مسائل دينية".

ويروي حافظ أحمد أفندي واقعة تكشف عن تأثير أحواله وتصرفاته في الناس فضلًا عن مواعظه، يقول: حاضَرَ رجلٌ كريم في مجلس بين أناس فيهم الأستاذ فتح الله، فأنصت إليه ولم ينبس ببنت شفة، فلما انتهى الرجل قال له: أنا من تحدث اليوم، لكنك كنت أنت الواعظ الحقيقي.

(١٦) نجيب فاضل قيصه كُورَكْ: من أشهر المفكرين والشعراء والكُتّاب الأتراك في القرن العشرين (١٩٠٤-١٩٨٣م)، لُقب بـ"سلطان الشعراء" لطول باعِه في الشعر.

(١٧) نسيج الإيديولوجيا: كتابٌ لنجيب فاضل، عرَض فيه حياتَه الفكرية والحَرَكية.

(١٨) بَيامي صَفا: مفكّر ورِوائي وقصصيّ تركيّ (١٨٩٩- ١٩٦١م).

ورغم العقبات التي واجهته إلا أنّه استقام على نمط الحياة الذي رسمه لنفسه، وذات مرة نفدت نقوده؛ فلم يقدر أن يشتري ولو خبزًا، وبات طاويًا أيامًا، وبينما هو يتوضّأ وجد خمس ليرات على الأرض، فاشترى طعامًا يسد الرّمق، وكفَتْه حتى استلم راتبه، فزادها خمس ليرات، وتصدّق بالعشر على الفقراء. وذات مرّة صعد المنبر ليخطب العيد والجوع يعتصر أمعاءه، فأكل ملعقة عسل من قعر قنينة كانت عنده؛ ولم يكن يعرف أن العسل لا يُؤكل والمعدة فارغة، فعانى من غثيان أثناء الوعظ. رغم كل ما عاناه لم يشكُ أمره ولو مرّة، ولم يدعه ذلك لتغيير نمط حياته رغم كل المشاق الماديّة والمعنوية؛ وكأن هذا السلوك لا ينتهجه إلا أفذاذ يصنعون تاريخ الحضارة.

كان الأستاذ فتح الله غيورًا على دينه منذ شبابه؛ فعندما طُرح موضوع كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية وهو في السادسة أو السابعة عشرة، كتب مقالًا ينتقد فيه هذه الفكرة؛ فروحه مثاليّة جيّاشة حتى إنه ليقول وهو تلميذ صغير بمدرسة مسجد قُرْشُونْلو: "ليتهم وضعوا الدنيا على أناملي فأُديرَها"، كان يجتنب أمور السياسة، ولكن هذا لم يمنعه أن يعترض وتثور ثائرته عقب انقلاب ٢٧ مايو/أيار ١٩٦٠م؛ وللأستاذ يشار الفضل في تهدئته تجاه ما يستنفر طبيعته الثائرة، فلنصائحه أثر بالغ في التخفيف عنه فيما تضيق به نفسه، وكان لرسائل النور أكبر الأثر في تهدئة نفسه الثائرة.

كان لوظيفة "الإمام الملقِّن" لمحكومٍ عليهما بالإعدام في أدرنه أثرٌ بالغٌ في حياته؛ كُلِّف عام ١٩٥٩م بتلقين رجل اسمه راسم، وكان الإعدام يومئذ علانيةً؛ فكان يحاول أن يلقّنه الشهادة وبعض الدعوات،

فيرد المجرم: "سيأتي أتاتورك، وسنذهب معًا إلى البيت"؛ فالمشهد حزين، لكـنّ الناس كانوا ينظرون إليه وكأنه مهرجان أو احتفال، وهذا أيضًا جعل الأستاذ فتح الله يتقطع حزنًا.

وألغـي الإعـدام علانيـةً، فأُعـدِم الثانـي -واسـمه محمـد- بعيـدًا عـن النـاس، وكم تأثر الأسـتاذ فتـح الله بالحادثة، يقول: "سـألته: تتوضأ؟ فأجاب: نعم، فلما بلـغ غسـل رجليه خارت قواه؛ أتذكر هذا وكأنه اليوم، لـم يُتِـمّ الوضـوء، فبدأت ألقنه الشـهادة، فلا يسـتطيع أن يكمـل، وكأنّما محيت من ذاكرته".

فترة الخدمة العسكرية:
التضييق الخارجي والتعمق الداخلي

استُدعي الأستاذ فتح الله للجيش في شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٦١م، وقد أمضى في أدرنه قرابة ثلاث سنوات؛ فودّعه جمع جمٌّ يبلغ الأربعين من محبيه عند انطلاقه من "قِرْقْ أَغَاجْ" إلى المنطقة العسكرية؛ وعلى رأسهم الأستاذ يَشار، وحسين طوب، وسالم آريجي الإمام الرئيس لمسجد الشرفات الثلاث، اتجه إلى إسطنبول ثم أنقرة، ومكث فيها ٥-٦ أيام عند السيد صالح أُوزْجان، وخدَم في أنقرة في كتيبةٍ خدم بها عمه من قبل، في السرية الأولى للاتصالات بالكتيبة الأولى بمنطقة "مَماق"، لفت الأنظار بجدّه وانتظامه، فتوطدت صلته بقيادة السريّة، علاوةً على أنّ بعض معارفه في أدرنه ذو صلة بقيادته، تدرّب أربعة أشهر بقطاع اللاسلكي وعمل فيه، ورغم أنه يؤدي الخدمة العسكرية كغيره، لكنه كان يرى أنه لا يؤدي مهمته حق الأداء، فرأى أن طعام الجيش لا يحلّ له، وكذا ملابسه المجانية، فاشترى ملابس عسكريّة من أحد طلاب الكلية العسكرية.

اضطربت البنية السياسية عقب انقلاب ٢٧ مايو/أيّار ١٩٦٠م، فخطط العقيد طَلْعَت آيْدَمير لانقلاب على انقلاب ٢٧ مايو/أيار، فأشرَكَ ١٥ ألف جندي من منطقة مماق، فوجد الأستاذ فتح الله نفسه بينهم يكابد آلام تلك الفترة العصيبة؛ ولما فشل العقيد سلّم جنوده أنفسهم، وصودِر سلاحهم، وصدر أمر بمنعهم من مغادرة الكتيبة مدة شهرين، فاستغلها الأستاذ فتح الله

فـي تزكية النفس، يقول: "لك أن تطلق علـى هذه الفترة "الأربعين"[١٩]، إنها أول "أربعين" أعيشـها دون تخطيط مسـبق في الجيش... وقفت فيها نفسي على العبادة، كنت أغدو إلى المسجد مبكِّرًا في ليالي الشتاء الطويلة، فأتعبد إلى جهمة الليل، فصفا عقلي وزكت نفسـي شـيئًا ما". لقد قطع مسـافات روحيـة مهمـة في نهاية هذه التزكية؛ وشـهد من التجليات الجليلة ما شـهِد ممـا لم يبُحْ بـه؛ ثم عاد الجنود لمهمتهم، وعُين هو في قسـم "الاتصالات السـريعة" وتعلـم هناك اسـتخدام الأجهزة اللاسـلكية، والكتابـة على الآلة الكاتبة بعشرة أصابـع.

يحكـي الأسـتاذ فتح الله عن مشـاقّ فـي الجيش لا تُنْسـى، وخاصة أوّل أربعة أشـهر بحي مماق، يقول: "عندما أتذكر الجيش أتذكر فورًا أوّل أربعة أشـهر، فلا يمكن نسـيانها؛ لم تكن السـرر كافية ، ففي اليوم الأول نمت أنا وواحد كنت أعرفه من قبل في سرير واحد، أُعطِي كلّ منّا بطّانية يتدثر بها، كنا ننام دون أن نخلـع أحذيتنا لنسـلم من التجمد في قَرِّ الشـتاء القارس؛ فإن اقتضى الأمر الماء وجدت مشقة عظيمة، لكن بدني كان قويًّا آنـذاك، فكم وكم اغتسـلت فـي أرضروم في المرحـاض، أصبّ بالكوب المياه الباردة على رأسي وأنا واقف على الثلج؛ كان الجنود يغتسلون معًا بـلا مبالاة، فكنت أرفض أن أدخـل معهم. وذات مرّة أُمِر الجنود بالتعري فـي فحـص طبّي عـام، فقـال الطبيب: اخلـع سـروالك، فقلت: "سـيدي، مـا رأى مـا بين الركبة والسـرة أحد، ولا أمي التي ولدتنـي"، فقال: اِمْضِ، فنجوت، وكان الطبيب طيِّبًا".

---

(١٩) مصطلح صوفي معناه: أن يتفرغ الإنسـان أربعين يومًا للعبادة والذكر والدعاء مع التزامه بقلة الأكل والنوم والكلام.

مضـت فتـرة التدريب وكانت نحو ثمانية أشـهر، وأُقـرِع بين الجنود لتوزيعهـم على ثُكَنِهـم، فخرج نصيبه مرتين في أرضـروم، فأعادوها ثالثة لئلا يكون الجندي في بلده، فكانت في مدينة "دِيارْبَكْر" في جنوب شرقي الأناضول، فأبى القادة أيضًا، فجاءت في إِسْكَنْدَرُون، وبدأت مرحلة مهمّة في حياته.

كان القادة هناك ألين من أنقرة، فاستراح بعض الشيء؛ عُيِّن في مركز الاتصالات، فكان يجلس وحدَه في سيارة مجهزة بأحدث التقنيات يومئذ؛ فأتـاح له ذلك أن يخرج ليشـتري الطعام، وأن يسـتمع مـن خلال أجهزة الاستقبال المتطوّرة إلى إذاعة القرآن الكريم التي تبث من دول عربية، وأن يعظ قبل صلاة الجمعة بملابس مدَنِيّة.

هـا هـو يعيش حـرًّا نوعًا مـا لكنه ماضٍ فـي تزكية النفـس التي أخذ نفسَـه بهـا في حياته كلّهـا، وها هو ذا يواصل حياته بدقّة ميزانه الحسّـاس في أدرنه، فهزل جسمه وضعف؛ فقلّما ينام و يأكل، فتبين بالفحص مِرارًا أن حالته خطيرة، فوُضِـع في المستشـفى مدة، ثم مُنح إجازة للاسـتجمام لمدة ثلاثة أشهر؛ فاستطاع أن يزور أرضروم ليرى أسرته بعد غياب أربـع سنوات، بل لم يُتَح لهم توديعه يوم أن التحق بالجيش، حتى إنّ أمّه عندما رأته سـألته: أنت فتح الله؟ وراحت تعانقه؛ فما كانت أمّه لتعرفه إذ تغيّرت ملامحه في فترة مرضه، وكان فتًى فغدا رجلًا؛ ثم أذنت له شعبة أرضروم بشهر آخَر، فقضى أربعة أشهر فيها، منها شهر رمضان المبارك، فوعظ في مساجد عدة بأرضروم، وذات يوم علِم أن فيلمًا يتحدث عن عهد النبي ﷺ سيُعرض في سينما بأرضروم، فأغضبه أنّ امرأة لا وجود للدين في حياتها تمثّل دور السيدة عائشة رضي الله عنها؛ فتحدث عن هذا في الموعظة، فثار المصلون

وهاجموا السينما، فحاول أن يثنيهم عن هذا قائلًا: "لا تفعلوا، فليس لنا أن نفعل مثل هذه الأفاعيل، علينا أن نعالج الأمر بطرق أخرى مناسبة"، وباءت محاولته بالفشل؛ فانضم إليهم آخرون فصاروا جمعًا كبيرًا ومنعوا عرض الفيلم، وتفرّقوا قبل أن يحدث ما لا يُحمد عُقباه.

وعقدت في هذه الفترة ندوة عن مولانا "جلال الدين الرومي"، وحاضر فيها أساتذة الجامعة، فشارك الأستاذ فتح الله فيها، وألقى كلمة عن حبّ مولانا للنبيّ ﷺ، فأبهرهم أسلوبه وبراعته في الارتجال وإلقاء الشعر الفارسيّ وشرحه، ودَحَض زعْم من زعَم من المحاضرين بأن "مولانا" يتبنى مذهب "بانْتَئِيزم".

وشارك أيضًا في فعاليّات إنشاء جمعية لمقاومة الشيوعية في أرضروم، والأولى من نوعها كانت في إزمير.

انتهت الشهور الأربعة فعاد إلى إِسْكَنْدَرُون، فوعظ بحماس بالغ، في عدّة مساجد، يرتدي جُبّته فوق ملابسه العسكرية ويُلقي الموعظة، يشخّص داء الحياة الاجتماعية بأسلوب مثير ومؤثّر.

وذات مرّة رغب إليه بعض من في الجيش أن يمدح القائد في موعظته، فمدحه بأنه "رجل قوميّ"، فلما عاد إلى وحدته العسكرية زلّت قدمه وهو يركب، فتكسّرت أضلاعه، وعدّه تنبيهًا معنويًّا له حيث ذكر في كرسي الوعظ ما هو متعلق بالأمور الدنيوية ليسترضِي فلانًا من الناس.

ثم عاود الوعظ بعد فترة قضاها في الفراش وأثارت هذه الفعاليات قلق أناس، فتحايلوا للضغط عليه، وأحرجوا أصدقاءه المساندين له في مواقف عدّة، وذات مرة خطب الجمعة -ولم يكن يتكلم عن شيء في السياسة- فلما خرج من المسجد وجد الشرطة عند خروجه يحاصرون المسجد،

وكأنهم يعتقلون قاطع طريق؛ فذهب إلى قائد الكتيبة وحيَّاه بالتحية العسكرية وسلّم نفسه؛ فأفشل خطة من يريدون تكرار أحداث "مَنَمَنْ"[٢٠] وخيّب آمالهم الخبيثة؛ وقبيل خروجه من المسجد سمع جنديًّا يقول: اضربوا هذا الوغد؛ فغضب المصلون؛ لكنه سلّم نفسه، فلم يفعلوا أيّ شيء؛ ولا شك أنهم كانوا سيضربونه لو تردّد، فقد أعدوا خططًا تنمّ عن حَنَقِهم ونواياهم الخبيثة.



جامع إِسْكَنْدَرُون

قُبض عليه وسُجِن، وكان رأي بعض الضبّاط فيه حميدًا فما كفّوا عن الحديث عنه، وفيهم نقيب مشهور بسُكره، حتى إنّه كان يستولي

(٢٠) واقعة "مَنَمَنْ": حدثت في مقاطعة مَنَمَنْ بإزمير في ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٠م، وهي اسم لسلسلة من أحداث خُطّط لها لإقحام المتدينين في المآزق، بدأت بمقتل ضابط احتياطي اسمه مصطفى فهمي قُبيلاي أثناء تأديته للخدمة العسكرية في مَنَمَنْ على يد مجموعة من مدمني المخدّرات تحت اسم الشريعة؛ فسُجن كثيرون إثر هذه الأحداث، وأُعدم آخرون.

على راتب الأستاذ فتح الله ليشتري الخمر، قال عنه أثناء المحاكمة: "فتح الله هو وحدَه المنضبط ويمتاز بأخلاقه العالية في الفِرقة، قلّ أن نرى مثله"؛ فكل قادته في الجيش يثنون عليه في خلقه ووفائه وحبه لوطنه اللهم إلا من أعمى الحقد عيونهم، فتأثرت هيئة المحكمة بهذه الشهادات؛ فسجن فترة قصيرة مع عقوبة تأديبيّة يسيرة، ثم أطلق سراحه؛ واستغل سجنه في قراءة كتاب "صفحات" للشاعر التركي المشهور محمد عاكف أَرْصُوي، وحفظ معظمه، وخلال فترة سجنه القصيرة تحسّن سلوك بعض أصدقائه المسجونين معه؛ وقد أذاعت جريدة "الاستقلال الجديد" خبرَ سجنه وإطلاق سراحه بعنوان "فتح الله حفيد محمد الفاتح".

وكانت طبيعته النشطة تأبى أن تبقى دون عمل يستهدف مثاليته التي جعلت منه إنسانًا فعّالًا نشِطًا على الدوام ولو في الجيش ذي النظام المحكم، فيوم أن وصل إسكندرون كان عدد المصلين في الوحدات لا يُذْكَر، لكن سرعان ما ازداد عددهم بمهارته وصدقه في النصيحة والموعظة، وكانت في الكتيبة قاعة تُستخدم لعروض سينمائية، فصارت مسجدًا تُصلَّى فيه الجمعة؛ كلّ هذا والحاقدون ما زالوا يتحينون فرصةً لاعتقاله، وليُفسِدوا عليه أمره، حتى إن والده لما زاره أُلقي القبض عليه لحضوره جلسة دينية.

وتُظهر مواعظه ومقالاته أنّه يقدر الخِدمة العسكرية قدْرها، وكلما جاءت مناسبة تحدّث عن تقدير الأتراك للخدمة العسكرية، فهي ليست أمرًا صعبًا ولا شاقًّا عليه إلا أن أعداء المثاليات والقيم التي وقف لها حياته فرضوا ظروفًا تسبّبت له في مشكلات وأزمات مختلفة يومئذ، فهؤلاء هم من جعلوا الخدمة العسكريّة شاقةً ومرهقةً؛ ولما أنهى مدة خدمته ورحل

عن إسكندرون عرض عليه صاحب شركة شحن العملَ مديرًا للشركة، فرفض ورجع إلى أرضروم.

ولأرضروم منزلة متميزة في حياته الروحيّة، لكنه آثَر الرحيل عنها بعد عودته رغم حبّه لها وإصرارِ أسرته وخاصّة أمّه على البقاء معهم؛ فالهجرة من مسقط الرأس في سبيل مثاليّاته من أمهات مبادئه في الحياة إيمانًا منه بالهجرة المقدسة التي طالما حدّث الناس عنها؛ فقرر الرحيل عن أرضروم، حتى وإن لم يرجع إلى أدرنه فلا شك أنه سيذهب إلى مكان آخر يخدُم فيه الإسلام.

العودة إلى أدرنه وفترة "قِرْقْلَارْ أَلِي": الفسيلة تشقّ الأرض

لأدرنه منزلة متميزة وأهميّة خاصّة في حياة الأستاذ فتح الله، لا سيما مسجد الشرفات الثلاث، ففيه نسَج شَرْنقة حياته الروحيّة والدعويّة؛ ويتحدّث عن سبب عودته إلى أدرنه ومشاعره تُجاه مسجد الشرفات الثلاث، فيقول: "مما حملني على العودة إلى أدرنه حبي الجمّ لمسجد الشرفات الثلاث الذي بناه "المعماري خير الدين"، لعلي أعمل فيه مرّة أخرى، فهو أحب إليّ من مسجد السليمية، ولعلَّ هذه الرابطة والولَه لأني عملت فيه من قبل، وضمّني إليه وآواني ثلاث سنوات، أو لأمورٍ لم أفهمها يومئذ، فمسجد الشرفات الثلاث مهد لطفرة رائعة في الهندسة المعمارية ولولاه لما كان مسجد السليمية أعظم مفاخر التاريخ التركيّ؛ ومصيره كمصير العملاق المهموم بأمته الأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورْسي الذي مهّد لفتحٍ إسلاميّ عظيم في الأناضول؛ وبين هذا المسجد والسلطان العثماني مراد الثاني توحُّد وتكامل؛ وهذا هو ما حبَّب إليّ مسجد الشرفات الثلاث بلا تشوف مني ولا إرادة".

ودّ لو أنه يعود إمامًا لمسجد الشرفات الثلاث، إلا أنّه عُيِّن معلِّمًا في مركز لتعليم القرآن الكريم، ولم يتوقف عن الوعظ، فنشرت الصحف خبر تعيينه، وادّعت أنّ تعيينه هذا ليس مناسبًا؛ وكانت الصحف والمجلات قد تناولت محاكمته أثناء الخدمة العسكرية، فذاع أمره في تركيا كلّها، خاصَّةً أنَّ بعض التيارات راحت تتعقبه خطوةً خطوة.


المنظر الخارجي لمسجد الشرفات الثلاث

وبينما كان يعاني من الملاحقة والتضييق الأمنيّ، كان يلقى مثل ذلك من مسؤولين في مركز تعليم القرآن فيه تخالف أفكارهم أفكاره واعترضوا على تعيينه؛ وانقشعت تلك الفترة العصيبة ببداية أخرى للأستاذ فتح الله؛ مرِض إمام "مسجد دار الحديث" فعُيِّنَ هو إمامًا مؤقتًا، واتخذ من ركن في المسجد مسكنًا له، وسرعان ما صيّره مدرسة لتعليم الطلبة، فغدا أول أرضٍ طيبة تنثر فيها بذور خدمة الطلبة؛ وبهذا الصّدد يلفت الأستاذ حسين طوب في مذكراته الأنظار، فيقول: "كانت وزارة الأوقاف تقتطع بعض راتب الإمام السابق لغيابه عن وظيفته، وتعطيه للأستاذ فتح الله الذي قام مقامه، لكنه لم يكن يتصرف فيه، بل كان يردّه بتمامه كلّ شهر للإمام السابق، ولما سُئل قال: أستاذي شيخ مريض، فهو أحوج إليه مني".

في تلك الفترة عُيّن صديقه الأستاذ الدكتور "سُعاد يِلْدِرِم" مفتيًا لأدرنه، فاستأجرا منزلًا، كانت دقته وحسّه المرهف في حياته هو هو، ففي مذكرات الأستاذ سعاد يِلْدِرِم ما يكشف عن هذا التميز بوضوح، يقول: "كلّ أحواله تنبئك أنه شخص متميز، منظّم، أنيق، يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، منزلُه غاية في النظافة والتنظيم، يهتمّ به اهتمامه بمنظره وملبسه؛ ولو قلتُ: لم أره مرتديًا حلة النوم قط طيلة ستة أشهر قضيناها معًا، لكفى في وصف شخصيّته الرائعة وعاداته الحسنة".

واصل المواعظ ومدارسة الكتب رغم صرامة الرقابة حينئذ وتناوب الشرطة على المسجد. ورأى واحد ممن يحضر حلقة الدرس رؤيا ألهبت أشواقهم، رأى أم المؤمنين خديجة ﵂ تشير إلى الخمسة المتحلّقين في الدرس وتسأل المصطفى ﷺ: "يا رسول الله، هؤلاء يسألون: هل أنت عنهم راض؟"، فقال ﷺ: "نعم، أنا راضٍ عنهم عامّة... وعن أحدهم خاصّة... وعن أحدهم خاصّة"؛ وفعلَت هذه الرؤيا فيهم الأفاعيل؛ فاستمرت الدروس رغم كلّ محاولات القمع والمنع، وسرعان ما ناف عددهم على ثلاثين.

جاء العيد فقام الأستاذ فتح الله بطبع بطاقة تهنئة، عليها حديث شريف يحض على تمسك المسلمين بدينهم مهما بلغت المشقة والبلاء الذي يتعرضون له(٢١)؛ فوقعت جلَبة كبيرة، واقتحمت الشرطة المسجد، فاعتقلوه، وَسِيق إلى التحقيق مرّة أخرى، وكانت أسئلتهم مأساة ومهزلة، مثلًا: ما كل هذا الإخلاص في المواعظ؟! وما السبب في تحمل كل المشاق في سبيل الدين؟ وما الذي يبكيك وأنت تعظ؟ بل سألوه: لماذا تأمر النساء وأنت تعظهنّ يوم الثلاثاء بقولك: "لا ترفعن إليّ أبصاركن"؟! كادوا له ليوقعوا به أثناء التحقيق، وشهد ضدّه محامٍ كان يصلي معه التراويح ودعاه غير مرّة إلى الإفطار عنده، لكنه أنكر أنه يعرف الأستاذ فتح الله، فطلب الأستاذ فتح الله الدفاع عن نفسه، وقال: "سأعقِّب على السيد المحامي، ثم قيِّموا الموقف بناءً على ذلك؛ هذا الرجل صلى معي

(٢١) عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا فَقَالَ ﷺ **"قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"**. (صحيح البخاري، الإكراه،١)

التراويح سنوات، والمئات يشهدون، ودعاني أنا والأستاذ سليم آرِيجي للإفطار أكثر من مرة، وجلسنا في أماكن لا أحصيها وشربنا الشاي معًا؛ فإذا كان صلى التراويح خلف رجل، وأكل وشرب معه على مائدة واحدة، ثم يأتي ليقول: "لا أعرفه"، فيمكنكم أن تقيسوا باقي كلامه على هذا"؛ وكان لشهادة رِفعت بك في الدروس والمواعظ وقعٌ كبير، إذ كان من قبل ضالًّا، ومثارَ إزعاج للناس جميعًا، قال: "السادة القضاة أنتم أعلم بما كنت عليه، أيام كنت أصيح في "قلعه اِيتشي"، فيفزعون جميعًا، هكذا كنت، وأنا الآن كما ترون، تغيّر سلوكي بفضل هؤلاء، كنت أتردّد عليهم، فوجدت ضالّتي وعرفت الحق فاهتديت بعد الضلال".

كان محافظ أدرنه يومئذ يفعل ما بوسعه لعرقلة حَراك الأستاذ فتح الله؛ فألغى له رخصة الوعظ، ومنعه من التدريس في مراكز تحفيظ القرآن، وهمّ بحبسه عشر سنوات، ووضعه تحت المراقبة الدائمة، فتحولت أدرنه إلى "كابوس" كما يقول الأستاذ فتح الله، لقد ضيقوا عليه الخناق، فذهب إلى أنقرة في ٣١ تموز/يوليه ١٩٦٥م يلتمس النقل إلى محافظة أخرى، فنُقِل إلى محافظة "قِرْقْلَارْ أَلِي". فلقِي ما لقي في أدرنه، ورغم ذلك كان يُعنَى بالناس فينفق راتبه كلّه عليهم بل وقتَه أيضًا؛ ليقيهم فتنة التنصل من التدين باسم المدنيّة.

وهذا مؤذن مسجد السليمية خمسة وثلاثين عامًا السيد "نادي أَرْضُوي" سكن مع الأستاذ فتح الله في أدرنه، فوصف شخصيته وحياته المتميزة في مذكراته قائلًا: "دقيق مرهف الحسّ، أظنني تعلمت النظام وكيّ الملابس منه. فملابسه نظيفة أنيقة، يعتني بمظهره بين الناس، ولا يلبس ما ليس بمكوي وما كان سيّئَ المنظر، عنده بنطال رماديّ،

يغسله جيّدًا كلّ يومين لعله تقذّر وهو ماشٍ في الشارع أو أثناء قضاء الحاجة مع أنّه يشمِّر عن ساقيه عند قضاء الحاجة؛ لا يملك مكواة، فيضع البنطال تحت فراشه ليغدو كأنّه مكويّ -وأنا أعجب لهذه الحال وأحزن- فإذا لبسه بدا أنّه كذلك فعلًا، ويظلّ كذلك، ولا أدري أكان ذلك من جودته أم من نوع قماشه؟ كنت أراه دائمًا منظمًا، أنيقًا، نظيفًا؛ وكأنّي تطبعت بمثل طبعه في حياته المنظمة ومظهره الحسن". فهذا يكشف عن أن دقته وحسّه المرهف في أيام دراسته ما زالا على حالهما رغم ما هو فيه، ويُظهر شمائل صارت له خلقًا من: نظافة ونظام ودقة وأناقة.

ويقول السيد نادي أرصوي: "منه تعلمت الأدب"، ويكشف في مذكراته عن أدب الأستاذ فتح الله وحسه المرهف واحترامه للصغار ولأترابه ناهيك عن الكبير، يقول: "سكنّا في منزل من غرفتين، إحداهما للدراسة والأخرى للنوم، فرأينا أن ننام في غرفة واحدة، وكان في الغرفة سرير معدني، تركته له وفرشت على الأرض؛ فلما تأخّر عن النوم قلت له: أستاذي أتدري كم الساعة الآن؟ حان وقت النوم، نم أنت على السرير وأنا أنام على الأرض، فأبى إلا النوم على الأرض؛ فلما تدثّر باللحاف، كنت جالسًا على طرف السرير، فأرق وتقلب يمينًا ويسارًا، فنظرت فإذا وجهه أحمر وعروق جبهته تكاد تنفجر، ففهمت الأمر، فهو يستحيي أن ينام وأنا في الغرفة، فقلت: لحظة من فضلك أستاذي، تفضل، نم على السرير، وأخذت الفراش واللحاف إلى الغرفة الأخرى وتركته وحده، وقلت: إن شاء الله سينام ويستريح".

ولما نزل في قِرْقْلَارْ أَلِي استأجر منزلًا، واقترض ليفرشه بسجادتين، فهما كلّ ما يملك، وكان يدفع أجرته وأجرة منازل الطلاب في أدرنه؛

فعـلاوةً علـى وظيفته كان يتردد على أدرنه عدة مرات كل أسـبوع؛ ليتفقد طلابـه فيهـا؛ ولـم تكن تحقيقـات أدرنه قد انتهـت، فلم يَرْعَـوِ الحاقدون عن ملاحقته والتربص به، فاسـتهدفته الصحافة المحليّة بمقالاتها، وحُقِّق معـه فـي خطبة جمعة ألقاها في قِرْقْلَارْ أَلِي، فلم يثبت ما يُدينه، وسـرعان ما أخذ البراءة؛ ورغم كلّ ما كان لم تخبُ جَذوة فعالياته ونشـاطه؛ يقول: "نظّمنا أنشطة عدّة، ففي منزلنا الصغير الذي يشبه عش البلبل كنا نتدارس كل ليلة، ويأتينا الناس من كل الجماعات، فكان بيننا تآلف وتناغم طيب"؛ وعقب مؤتمر دعا إليه الشـاعرَ التركي المشهور نجيب فاضل وجد فرصة للتحـدث إليـه طويلًا، فأظهر نجيب فاضل اهتمامًـا بالغًا به، وكتب بعدئذ عدة مقالات يقرِّظ فيها رسائل النور.

مرحلة إزمير:
وأزهرت الفسيلة

أخذ الأستاذ فتح الله إجازة لزيارة مدنٍ أخرى في الفترة التي كان فيها في قِرْقْلَارْ أَلِي، كانت الإجازة عشرين يومًا، إلا أنها استمرت أربعين، وفي طريق عودته مرّ بأنقرة وطلب من الأستاذ يَشار طُوناكُور مساعد رئيس الشؤون الدينية إجازة عشرين يومًا أُخرى، لكنه أوعز إلى الأستاذ فتح الله أن يستبدل به طلبًا يبيّن فيه أنه يرغب بالتعيين في إزمير، فاعتذر الأستاذ فتح الله عن تقديم مثل هذا الطلب، إلا أنّه ألحّ عليه وأوعز إلى أحدهم أن يكتب الطلب، وحمله على التوقيع مستغلًّا احترامه له.

ولما غادر الأستاذ يَشار طُوناكُور من إزمير إلى أنقرة قال وهو يودِّع محبِّيه في إزمير: "سأرسل لكم شخصًا وستنسونني"؛ فصدر قرار تعيين الأستاذ فتح الله في إزمير بتاريخ ١١ آذار/مارس ١٩٦٦م، وودَّعه جمع غفير من محبِّيه في قِرْقْلَارْ أَلي، وبدأ العمل مديرًا في سكن طلاب ثانوية الأئمة والخطباء "كَسْتانه بَزارِي"، وكان السكن الطلابي يعاني من الفوضى؛ فاضطُرّ بادئ الأمر إلى مواصلة العمل ليل نهار في إدارة السكن فلم يكن ينام سوى ساعة أو ساعتين أملًا في عودة الانضباط إلى السكن؛ يحكي الأستاذ فتح الله عن أيامه الأولى التي قضاها في كستانه بزاري قائلًا: "بناءً على تقييمي المبدئي اقتنعت بأنّه من الضروري ملازمة الطلاب بشكلٍ دائم، فاقتضى هذا منّي أن أصل الليل بالنهار فلا أنام، فحالة الطلاب عمومًا تقتضي ذلك؛ فهزُلَ بدني كثيرًا إذ قلَّما أتناول الطعام، ورغم ذلك كنت أكتفي بنوم الساعة أو الساعتين في اليوم، وأحيانًا أصل ليلي بنهاري

دون أن أنـام، وبينما أشـرف على الطلاب وهم نائمـون كنت أتجول عدّة مـرات فـي الحمّامات والغرف، وإذ كنت أعتنـي بالطلاب عن كَثَب كنت أعمل على إصلاح كلّ ما أراه مخلًّا بالنظام".

وضـاق بعضهـم ذرْعًـا باهتمـام الأسـتاذ فتـح الله بالانضبـاط عامَّة وبعنايتـه بالطلاب خاصَّة؛ فلجـؤوا إلى حِيَل عدَّة، وحاولوا زعزعة مكانته عنـد الطـلاب؛ فأصبح انضباط السـكن أمرًا صعبًا إلى حدٍّ ما في الأشـهر الأولـى، وأظهر بعضهم سـلوكًا معاديًا لدَماثة الأسـتاذ فتـح الله، فاجتمع رئيس الجمعيّة السيد "علي رضا كُوَنْ" بهؤلاء الأشخاص وحذَّرَهم بقوله: "هذا الأسـتاذ لا يأخذ من السـكن شـيئًا ولو لقمة، فلو بدر منكم سـلوك يضايقه، طردتكم جميعًا".



جامع كَسْتانه بَزاري الذي عمل فيه الأستاذ فتح الله كولن واعظًا، والسكن الطلابي الذي عمل فيه مديرًا بين ١٩٦٦-١٩٧٠م

وأخـذ أمناء الوقف والطلاب كذلك يَقْدُرون الأسـتاذ فتح الله قَدْرَه؛ يذكر خليل مَزِيك -وهو من أوائل تلامذة الأسـتاذ ورابع أربعة أرسـلهم

عقب وصوله إزمير لمتابعة الخِدمة التي بدأها في أدرنه من قبل- تودُّدَ الطلاب للأستاذ ورأيهم فيه وكذلك مواقفه معه بقوله: "قدمت إلى كستانه بزاري في عام ١٩٦٥م، وجاء الأستاذ فتح الله في صيف ١٩٦٦م، كان الطلاب جميعًا ينظرون إلى الأستاذ فتح الله نظرة ريب، كان شابًّا يومئذ إلا أنّه كان يبدو وكأنّه شيخ كبير مهيب وقور رزين.

قال لي إبراهيم أفندي إمام جامع كستانه بزاري: "أشعر بشيء ما نحو هذا الأستاذ الجديد، ووصلني خطاب يوصِي به"، يعني الخطاب الذي أرسله الأستاذ يَشار طُوناكُور، ولما لاحظ الأستاذ إبراهيم جوهر الأستاذ فتح الله مما قرأه في الخطاب وما رآه من ورعه، بدأ يوصينا به ويقرّبنا إليه شيئًا فشيئًا، وكنّا يومئذ صغارًا؛ فلم ندرك أهمية الأمر، ولم نُعْنَ به كثيرًا، لكن ما إن بدأ الأستاذ فتح الله دروسه في التزكية حتى بدأنا نحبّه ونَقْدُره قَدْره؛ كان الأستاذ فتح الله يتناول مواضيع عِدّة، ويطيّبها بعبق من حياة الصحابة، فحياتهم محور أساس ومضرِب المثل في أحاديثه؛ وكان -وهو يسرد الأحداث- يتأثّر فيَبكي ويُبكي مَن حولَه، وسرعان ما ألِفه الطلاب وأمناء الوقف أيضًا، بل إنّ الأساتذة الآخرين الأكبر منه سنًّا ممن سبقوه إلى كستانه بزاري بدؤوا في تقديره، ثم ما لبث أن أصبح شخصيَّة مرموقة في إزمير.

في شهر رمضان كنت أصلي التراويح بختمة في كستانه بزاري، وكان الأستاذ فتح الله يعظ في مساجد شتَّى قبيل صلاة التراويح، فكنا نتناول وجبات خفيفة، فتكفيه لُقيمات مما تيسّر على الإفطار، كان يشتري الجبن واليوسفيّ، وكنَّا نُحْضِر الخبز من سكن الطلاب، لنفطِر معًا، كان الأستاذ فتح الله لا يتناول من طعام السّكن، حتى إنه كان يدفع ثمن الخبز، وثمن وجبات من يأتيه زائرًا".

بعـد زُهـاء سـتة أشـهر من شـروع الأسـتاذ فتـح الله في العمـل بُني له كوخ في فناء السـكن، مِتْران في مترين، لا شـيء فيه ولو ماءً، وأصبح هـذا الكـوخ أرضًـا طيّبـة نثَـر فيها بـذورَ أحـلامٍ تـراءت له وهـو يدرُس في مدرسة قُورْشُونْلو، وتمرّ السّنون ويحكي الأستاذ عن هذا الكوخ وهو يَذكره بشـوق في وعظه وحواراته: "كنت أحبّ كوخي كثيرًا رغم أنّه كان صغيـرًا، فلـو مـددت قدمَيّ للامسـتا جدرانـه، ولم يكن به حمَّـام، فكنت أغسل يدَيّ من مياه البرميل خارج الكوخ، لكن هذه الغرفة الصغيرة كانت من الأماكن التي تؤنِسـني في خدمة الإسـلام بشكل كبير، مكان متواضـع بسـيط، إلا أنّه كان منطلَقًا لخدمات كثيرة سـتكون فيما بعد، وكان كمورد الماء يعج بالنّاس على الدّوام".

وعِـلاوةً علـى عناية الأسـتاذ فتـح الله بالطلاب عن كَثَـب، فإنه كان يُلقي مواعظه في أماكن شتَّى بمنطقتي بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط وليـس في إزمير فحسـب، وسُـجِّلَت هذه الـدروس ووزِّعت على كثيرين رغـم أنه لـم يحبِّذْ ذلك، يروي جاهد أردوغان -وقد بذل جهدًا مشـكورًا في تسجيل الدروس- ملاحظاته الأولى حول الأستاذ وفترة الوعظ قائلًا: "اضطـرِرت فـي عام ١٩٦٥م أن أترك حِرفتـي، وكان لديّ مصنـع للملـح، لكنني كنت أرى يومئذ أنَّ تسجيل دروس العلماء المشهورين أمثال الأستاذ طاهر بُيُوكْ كُورُكْجو ويَشار طُوناكُور لتوزيعها على المناطق المجاورة يُعدّ خِدمة للإسلام، وكان وعظ الأستاذ يشار خاصة يؤثِّر فيّ أيَّما تأثير؛ فبذلت ما في وسـعي لنشـر مواعظه في المناطق المجاورة؛ وذات يوم صدر قرار بتعيين الأستاذ يشار في أنقرة مساعدًا لرئيس الشؤون الدينية، فطلب أعيان إزمير إلى الأسـتاذ يشار أن يسـعى لإيقاف هذا التعيين الجديد، واجتمعوا

عنـده ليتقدموا بطلبهم هذا، وكنت معهم يومئذ، فقال لنا: "لا تحزنوا على فِراقي، فلسـوف أرسل إليكم مَن تحبونه أكثر مني"، ولا ريب أنهم جميعًا كانوا يعدّون هذا منه مواساة لهم، وأنّ شيئًا من هذا لن يحدث.

رحل الأسـتاذ يشـار، وبِتْنَا ننتظر الأسـتاذ الجديد بشـغَف، ولم أكن لأصدّق أنه سـيكون كما قال الأسـتاذ يشـار؛ فأنا أعرف كلّ مشـايخ هذا العصـر في بلادنـا، وتدور عجلة الزمـان ويأتي الأسـتاذ الجديد، فذهبت لأسـتمع إليـه، وقطعت أنَّـه لا داعي لإحضار المسـجِّل، إلا أن النّدم كاد يأكلني وأنا أسـمع موعظته، وكنت أردِّد في نفسـي: ليتني سجّلْت، انتهى الدَّرس وغدوتُ مبهورًا؛ لقد كان وعظًا مؤثِّرًا ما سمعتُ مثلَه قطّ، فعزمت مِـن فـوري علـى أن لا أغادر صغيـرةً ولا كبيرة من مواعظه إلا سـجّلتُها، والحمـد لله الـذي هداني لهذا، فأصبَحَت تلكم الوظيفة شـغلي الشـاغل، ودأبـت عليهـا -بفضـل الله- إلـى اليوم، وعسـى أن يدوم فضـل الله عليّ ما دمت حيًّا، فيا ربِّ وفِّقني ولا تقطـع سَيْبَك عنِّي(٢٢).

كان الأسـتاذ أحمـد فَيـزي ﷺ لا يسـتكثر من الوعـاظ، ولا يُعجبه أمرهم، وما استطعت أن أحمِله على سماع أحدٍ منهم، فهو من أهل العلم أصـلًا؛ وذات يـوم قابلتـه وأنا في طريقـي إلى الموعظـة، وأظنّ أن ذلك كان في الأسـبوع الثالث من وصول الأسـتاذ فتح الله إلى إزمير، فسألني: إلـى أين؟ فقلت: إلـى الموعظة، إنّه واعظ ليس له نظير؛ هلمَّ معي، فأبى، فآليـتُ عليـه -وكان يحبّني كثيرًا- فلبّى دعوتـي وحضرنا معًا؛ فلما انتهى الوعظ وصلَّينا الجمعة بدأ الناس بالخروج من المسجد، فشرعتُ أجمـع

(٢٢) توفي جاهد أردوغان في ١٠ يونيهْ/حزيران ١٩٩١م؛ واسـتجاب الله دعاءه فظلّ ينشـرُ مواعظ الأستاذ فتح الله حتى الوفاة، رحمه الله رحمة واسعة.

أغراضي لنخرج، وكان بين الأستاذ فتح الله والأستاذ أحمد فيزي عدّة صفوف، فلما نهض الأستاذ فتح الله هبَّ هو أيضًا وتوجّه إليه مسرِعًا وتصافحا، لا أدري ما دار بينهما، فإن كان هناك ما أعلمه فهو أن الأستاذ أحمد فيزي اغتبط أيّما غبطة بحضوره الموعظة؛ فما إن انتهينا حتى سارّني قائلًا: "أصبْتَ، إنّه واعظ ليس له نظير"، قلت له هذا من قبل فلم يقتنع، والآن شاطرني الرّأي.

لم يكن الأستاذ فتح الله يرضى أن تُسجَّل مواعظه قطّ، لكننا لم نعبأ بذلك، ونجحنا في تسجيل الدروس، فالإمام الغزالي يقول: "أحيانًا تكون الموافقة قبيحة لا ينبغي أن تقع بل الأدب المخالفة ما أمكن"(٢٣)، فسلكنا نحن أيضًا هذا المسلك(٢٤).

كان للأستاذ فتح الله برنامج مكثَّف، فهو في عملٍ دؤوب ليل نهار؛ يحكي بكلماته هذه كيف كان يقضي يومه يقول: "كنت أعظ في أكثر من مكان -مكانين أو ثلاثة- في إزمير، وفي الوقت نفسِه لا آلو في الحضور إلى الأماكن التي تطلب مني موعظة، كنت أعِظُ كلّ جمعة في جامع كستانه بزاري، أما المواعظ الأخرى فأجعلها ما استطعت يومَي

(٢٣) إحياء علوم الدين: ٥٦/٢. وسياق المقولة (كان علي ﷺ يضجر من كثرة تطليق الحسن، فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبته: إن حسنًا مطلاقٌ؛ فلا تُنكحوه، حتى قام رجل من همدان فقال: والله يا أمير المؤمنين لننكحنّه ما شاء، فإن أحبّ أمسك، وإن شاء ترك، فسَرَّ ذلك عليًّا، وقال: لو كنتُ بوّابًا على باب جنّة ... لقلت لهمدان ادخلي بسلام، وهذا تنبيه على أن من طَعَن في حبيبه من أهلٍ وولدٍ بنوع حياء، فلا ينبغي أن يوافق عليه، فهذه الموافقة قبيحة بل الأدب المخالفة ما أمكن).

(٢٤) يُحكى أن الأستاذ فتح الله عاتبه ذات يوم بسبب تسجيله المواعظ، لكن السيد جاهد رد عتاب الأستاذ بأسلوب يحاكي العتاب أيضًا قائلًا: "لا أسجّل المواعظ لأجلك أنت، ولكنني أسجّلها ليستفيد الناس بها، هذه مهمتي التي تهمني، فلتهمك مهمتك!" فلم يستطع الأستاذ فتح الله أن يجيب، فاستمر هو في مهمته إلى آخر عمره ﷺ.

السبت والأحد، فالحمد لله أنِّي كنتُ أُطيق ذلك؛ مثلًا كنت أذهب يوم السبت لأعظ في أحد الأماكن، فيستغرق طريقي الليل كلَّه، وفي اليوم التالي أعظ في مكان آخر، وأقضي المساء في الطريق بلا فتور؛ ولم يكن شيء من هذا ليشغلني عن دروس الطلبة في الصباح، فكنت أُدرِك دروس الطلاب على وقتها". فلو تأمّلنا رِحلاته هذه في المواصلات العامّة في ذلك الحين، لأدركنا شيئًا من المعاناة التي كان الأستاذ يتكبدها.

ورغم أن الأستاذ فتح الله كان يهدف من مواعظه ومحاوراته إلى الوصول للطبقة العريضة من الناس؛ إلا أنّه كان يرفض بَتَاتًا أن ينسب إلى شخصه ما يبديه الناس من شغَف بالموعظة، وكم كان يغضب عندما يصرف الناس اهتمامهم لشخصه بدلًا من الحقائق التي يتكلم حولها، وكان يتجمَّل بالتواضع -إحدى خصاله المميزة لشخصيته- وتواضعه يظهر عند اهتمام الناس بمواعظه.

وللسيد "مُحرّم قَلْيُونْجو" ذكرى يحسن ذكرها مثالًا على هذا، يقول: "ذات يوم ذهب الأستاذ فتح الله ليَعِظ النّاس في مقاطعة "بَرْصا" فذهبت معه بالحافلة، فلما وصلنا وجدنا الناس ينتظرون، فالموعظة بعد العصر أو المغرب، وبينما كنَّا ننزل من الحافلة إذ سمعنا نداءً من مكبِّرات الصوت بالبلدية: "انتبهوا جيّدًا فاليوم سيعظنا الواعظ المشهور الأستاذ فتح الله كولن"، إذا بالأستاذ فتح الله تحيّن الفرصة ليتسلل من بين الزحام، وركب من فوره سيارة تنادي: إزمير.. إزمير..، ولحِقنا به بصعوبة في وسط هذا الزحام، ولم نعرف السبب؛ وقد علمنا بعدُ أنّه غضب كثيرًا عندما سمع صوت مكبِّرات الصوت، فغادر المكان، ولم يعظ فيه ذلك اليوم.

ومثـل هذا وقـع فـي مدينة بُورْصـة أيضًا، ففي إحـدى المحاضرات تعالَت أصوات التصفيق عندما بدأ الأستاذ فتح الله بالحديث، فأشار إليهم ألا يفعلـوا، إلا أنهـم فعلوهـا ثانية، فحملق الأسـتاذ كالعقـاب هذه المرة وأكمـل حديثه، فلمـا تكرر الأمر قال: "السـلام عليكم"، وغـادر المكان، وكانت المحاضرة في سينما، ويحضرها جمع جمٌّ من الناس".

نعم، إنّ مواعظ الأستاذ فتح الله بالغة التأثير، لكن لا يمكن أن نختزل وصفَها ببيانه المفلِق فحسب، فعِلاوة على هذا تلقاك مُعاناته قبل أن يتفوّه بأيّة كلمة، فقبيل الموعظة بيوم على الأقلّ يتفاعل مع موعظته في جيشانٍ هائـل؛ لـذا كان يفيـض إخلاصًـا وصدقًـا في وعظـه للسـامعين، ولا ينِي في محاسـبته نفسَـه طَوال الموعظة، ولا يقول ما لا يفعل، وميزانه في هذا الأمر حسّاس جدًّا، يقول: "لو تثاءبتُ أثناء الصلاة في الليل، لقضيت شهرًا لا أتكلّـم فيـه بتاتًـا عـن الصـلاة أمـام عُمَّـار المسـجد"؛ إن هـذا ليشـير إلى محاسبته العليّة ونظامه الداخلي العالي.

كان الأسـتاذ فتـح الله يُعنَى بشـؤون الطلبة عن كَثَـب، رغم برنامجه المكثَّـف، وبلـغ عدد من يُولِيهم عنايةً خاصَّة سـبعين طالبًـا؛ وقد أينعت دروسه بتأثيرها فيهم سعادةً وأملًا في ربوع قلبه.

ويحكي الأستاذ نكتة لأحد طلابه في هذه الفترة تشير إلى مدى تأثير دروسـه فيهم، يقول: "إن كانت أعينُ الطـلاب في درس الأخلاق لَتفيض مـن الدَّمـع، وذات ليلة كنت أتجول في غـرف النوم، فرأيت خليل مَزِيك قد ربط نفسَـه بأعلى السـرير المزدوج، فسـألته عن صنيعِهِ، فقال: "فكرت فيما قلْتَه بالأمس، فربطت نفسي لئلا يغلِبَني النوم".

مضَت سنتانِ على وصوله إلى إزمير؛ فازداد عدد الطلاب كثيرًا، وبات الاهتمام بهم في فترة الصيف ضرورة؛ فقام بتنظيم دورات تأهيل في مخيّمات صيفية، فواجهته عقبة التمويل، حقًّا إنّها معضِلة، فقصَد أنقرة يلتمس مِن أهل الخير الذين يعرفهم مَن يموّل حاجات المخيم لا سيما الخيام، فنهض هؤلاء بإنشاء أول مخيم، فالتحق به سبعون طالبًا؛ وما زال العدد يزداد في الأعوام التالية، حتى صار الطلبة في السنة الثالثة يتناوبون على المخيم لكثرتهم.

اضطُرّ الأستاذ فتح الله -وهو مَن يقف وما يزال وراء الخِدمة يومَ أن بدأت على هذه الشاكلة- إلى الاحتكاك بمن يتربَّصون به ويثيرون الزوابع من حوله، وكان منهم أن أرسلوا خِطابًا فيه ما فيه من تحقير لقاضيةٍ كانت تنظر في دعوى ضدّه في أدرنه، محاكِين توقيعه؛ فتحرّت النيابة عنه، إلا أن وكيل النيابة أدرك بعد التحرّي أنها مكيدة مُلفّقة، فبرَّأ ساحتَه.

وبينما الأستاذ يُمنَى بمثل هذه المكائد أخذ بعض الإداريين في سكن الطلاب يثير المشكلات أيضًا؛ فقد كان في صلته العميقة بالطلاب وتأثير وعظه فيهم ما يثير حفيظة بعض الإداريين في السّكن والوقف، كان هو المعرفة إلا أنهم أرادوا له أن يكون نكرة؛ فبذلوا قصارى جهدهم ليقصوه عن عمله؛ ويقتضب الأستاذ فتح الله وصفَه لهذه الفترة الحرجة بقوله: "برَّح بي الألم حتَّى لَكأني ألعَق الصَّبِرَ"، فتجشّم الصبْرَ على صُنَّاع المشكلات، فلما بلغ السيل الزُّبى اضطُرّ أن يغادر كوخَه الخشبيّ بعد خمس سنوات أمضاها فيه، فترك هذا الرحيلُ آثارًا كبيرة في عالمه الداخليّ، وكان قد تعلقَ بهذا المكان فتجلَّى تعلُّقه به في كلامه عن كستانه بزاري إذ يقول: "كان سكَن الطلاب في كستانه بزاري كلَّ شيء في حياتي، ولم يخطر على بالي أنني سأرحل عنه يومًا ما، حتَّى إنني تمنّيتُ أن يكون أحد

أركانه قبرًا لي، فمرادي الأول والأخير أن أُدفن في كستانه بزاري، لأسمع أصوات الطلاب من قبري؛ نعم، فهذا هو كل ما أتمنى وأطلب من الدنيا؛ لذا رفضت دون أدنى تفكير ما عرَضه عليّ رجال الأحزاب بعزمٍ وإصرار من منصب رفيع".

"كانت حدَّة الأزمات في كستانه بزاري تزداد يومًا بعد يوم دون توقف، فاتخذت منزلًا في حيّ "كُوزَلْ يالي"، وفي ليلةٍ ليلاء جمعت أمتعتي وحملتها في العربة، وساعدني الطلاب في ذلك، رحلت عن كستانه بزاري وعيناي تفيضان من الدمع، وقلبي يتلظّى بلوعة الفراق، فلربما برَّح بي الشوق إلى كوخي الخشبي الذي أنِسْتُ به سنين عددًا، ويكأنّي فقدْتُ شيئًا من جسمي بعد أن أَلِفتُ كوخي وكستانه بزاري، ناهيك عن طلابي الذين نزلوا مني منزلة الرّوح من الجسد...

وأنَّى لي أن أنسى تيكم الأيام، أو كوخي الخشبي، وقد أفضيتُ بأقدس أسرار روحي إليه؟ لا أظنّ أنَّني سأنساه، وكيف أنساه أو أنسى طلابي الذين يتراءى لي خيالهم في كلّ شيء، ففي لحظات الوداع كانت أعينهم تفيض من الدمع حزنًا، وكأنّي بنظراتهم البريئة تتوسل وتستغيث: لمن تتركنا؟ آهٍ آهْ... ليتني أقدر أن آخذهم معي جميعًا؛ إلا أنّ ذلك لم يكن في وسعي يومئذ".

"كأنّ عجلة الزمان لا تدور، فالثواني باتت سنين، أمَّا الأيام التي قضيتها مع طلابي فأكاد أتخطّى فيها الزمن وكأنني أسابقه، فما أقوم به وما ينبغي لي أن أفعله يضيق به الليل والنهار، فالواجبات أكثر من الأوقات، أي هل لمثل هذا الوقت الضيّق أن يستوعب هذا الكمّ من العمل الذي يتطلَّب أكثر من أربعة وعشرين ساعة في اليوم؟"

خلَّـف الرحيـل عن كسـتانه بـزاري حزنًا هائـلًا، فهذا المـكان ليس كغيره، فكم وكم من الخِدمات شعّ نورها منه.

فـي هـذه الفتـرة لمعت فـي الأفق فكرة إصـدار جريـدة، فأصدر هو وصالح أُوزْجان جريدة أسبوعيّة اسمها "الاتّحاد"، وحظي صدورها بتأييد السيد زبير كُونْدُزْ آلْب، وسرعان ما استفحل الخلاف حول الجريدة، فإذا بهـا بوّابـة خلاف وقد كان يُرجَى لها أن تكون رابطـة لا ممزِّقة، فلما رأى الأسـتاذ فتح الله أنّ الأمور لا تسـير على ما يرام، وأن الجريدة لا يمكنها تحقيق هدفها على هذا النحو، عزف عن المشاركة في فعالياتها.



توديع الأستاذ فتح الله أثناء مغادرته إزمير للحج ١٨/٢/١٩٦٨م

وفي هذه الفترة أيضًا سـافر الأستاذ فتح الله ليحجّ، وكان ثالث ثلاثة أرسـلتهم رئاسـة الشـؤون الدينية مشـرِفين على بَعثة الحجّ عام ١٩٦٨م، فأورثَته تلك الزيارة فضل شوق وشغف بحياة الصحابة لا سيما أنّه ترعرع علـى حبِّهـم، وكان إذا تحـدّث عن محبَّة النبيّ ﷺ يغطّ فـي بكائه غطغطة

القِدْر، وكانَ هذا الشوق هو رفيقُه في رحلته كلِّها، وها هو ذا يحكي مشاعر غمرَته في أول وهلة رأى فيها الكعبة والروضة المطهّرة يقول: لما رأيت الكعبة والروضة المطهّرة لأوَّل وهلة إذا بي في حالة روحية لا تُوصَف، ولو فتّحت لي أبواب الجنة كلّها حينئذ -وهذا محض خيال- ودعيت إلى دخولها، لعزفت دخول الجنة حتمًا ولرغبتُ في البقاء بجوار الكعبة الشريفة والروضة المطهرة؛ لقد وجدْت في مجاورة الحرم الشريف والروضة المطهرة لذة روحيّة غامرة ومتعة ليس لها نظير...

تذكَّرْتُ طلابي لا سيما طلاب كستانه بزاري، فلهم عندي مكانة متميزة، فأعددْتُ قائمة بأسمائهم، وأحضرتُها معي إلى الحج، فدعوت لهم فردًا فردًا، عِلاوة على أنني دعوت لآخرين أعرفهم بأسمائهم".

من ذِكريات أيام كستانه بزاري التي لا يتأتّى نسيانها المخيماتُ التي أطلَّت ببشائر جيل جديد؛ وهي مخيمات صيفية أنشئت في "بُوجا" بإزْمير عند قرية "قَايْنَاقْلَار" في عرين أشجار الصنوبر بين الحقول؛ أُنشئت لتربية الطلاب وتهذيبهم، وتعليمهم كيف ينبغي أن يستثمروا وقتهم بشكل صحيح، فكانت مكانًا مناسبًا للمخيم، فالمكان يمتاز بالهدوء والهواء الطَّلْق على ما فيه من مشقة في تحصيل مستلزمات الحياة.

ويُعرِب الأستاذ فتح الله عن أهداف المخيم قائلًا: "يهدف المخيم إلى استغلال الطلاب لعطلة الصيف في هذه المخيمات، كيلا يذهبوا إلى قريتهم أو بلدتهم فينقطعوا عن طلب العلم، ومن أهدافه أن تنتظم عقولهم وقلوبهم وأرواحهم، وأن يتعمقوا في العلوم الشرعية"، ولهذه الكلمات إشارات دالّة تفسّر تأثّر من كانوا معه بأفكاره حينئذ. ويذكر الأستاذ أن الأيام التي قضوها في المخيمات تركت أثرًا عميقًا في الذين حضروها.

في السنة الأولى ضمّ المخيم ٥٠-٦٠ طالبًا، وفي السنة الثانية والثالثة ناهز عددهم الألف، فصاروا يتناوبون بعدئذ على المخيم، تراوحت أعمار من التحق بالمخيم في السنة الأولى بين ١٣-١٤ عامًا، ثم التَحق به طلاب الجامعة في الأعوام التالية.

لم تكن المخيمات مألوفة في هذه الفترة، فلم تجد كثيرًا من المؤيدين، فمن الناس من تردد في تعليم الشباب بهذه الطريقة؛ فواجه الأستاذ فتح الله عقبات عدّة في هذا الصدد، منها محاولته توفير مصروفات المخيم من ناحية، وتطبيق النظام والالتزام به في الحياة اليومية بالمخيم من ناحية أخرى، وتصدِّيه لصعوبات المكان الذي نُصِب فيه المخيم، يقول: "كان المخيم الأول كئيبًا بعض الشيء؛ فأنا المسؤول عن كلّ شيء، مِن نصب الخيمة إلى تجهيز الطعام، ولو فسد شيء من هذا فعليّ أن أصلحه، وكثيرًا ما كانت مضخة البئر تتعطل، فأصلحها بنفسي في كلّ مرّة؛ ولم تتوفر الكهرباء في العام الأول، وحصلنا في العام التالي على مولِّد كهربائي صغير بلغت قوّته ثلاث كيلو وات، وكثيرًا ما كان يتعطل المولّد أيضًا، وتصليحه عليّ طبعًا...

وكلما ازداد عدد الطلاب تضاعفت المشقة، ففي السنة الثالثة خاصّة حلَّت بالمخيم أزمة كبيرة في المياه، كنت أحمل المياه بعربة من الآبار من مسافة بعيدة في تلك المنطقة، فكنت السائق والساقي والمدرِّس، في الحقيقة إن توفير الطاقة لكل ذلك كان أمرًا شاقًّا لأبعد حد، لكنني كنت أحاول جاهدًا.

كان المولِّد الكهربائي قديمًا جدًّا، كنت أضطر كلّ يوم إلى فكِّه وإصلاحه، وَيْكأنّي أصبحت مهندس مولِّدات كهربائية! وأحيانًا كان

لا بدّ من حفر البئر قليلًا، فأحفره بالمجرفة بمساعدة الأصدقاء، ثم تعاضدْنا لنبني الحمّامات، ففعلنا، بل حفرنا لها الصرف الصحي أيضًا.

وإنما أذكر هذه الأعباء لأنني أرى فيها أجمل لحظات حياتي، لا لأحكي عن مكابدات قاسيتُها يومئذ".

وتفاقمت المشكلات حين تخلّي أمناء الوقف في كستانه بزاري عن مساعداتهم كليًّا للمخيم لا سيما المخيم الثالث.

وضاق بعض الناس ذرْعًا بزيادة عدد المقبلين على المخيم، حتى وصل الأمر بهم إلى قطع الطريق على الأستاذ فتح الله وطلابه، بل قاموا بتهديدهم بشكل غير مباشر؛ فطاف الأستاذ فتح الله شهرًا كاملًا في جبال "نِيف" يبحث فيها عن مكان للمخيم، حيث يقول الآن: "أعرف جبال نيف كما أعرف راحة يدي" إلا أنّه لم يجد فيها مكانًا مناسبًا، وخاطر بكلِّ شيء وأنشأ المخيم في نفس المكان.

كان الأستاذ فتح الله يقوم بأنشطة المخيم كلّها، ولا يغادره بلا ضرورة، اللهم إلا يوم الجمعة إذ كان يذهب إلى إزمير يخطب الجمعة ويلقي المواعظ؛ وفي السنة الثانية أخذ إجازة ولم يغادر المخيم، أما في السنة الثالثة فكان يغادر المخيم كلّ جمعة فقط ليخطب ويعِظ.

أمَّا أيّام المخيمات بأنشطتها الاجتماعية والرياضية الكثيرة عِلاوة على ما فيها من دروس تُلهب حماس الطلبة فيصفها الأستاذ فتح الله قائلًا: "ازدان المخيّم بالنظام والأدب والعلم معًا؛ فخطونا بهذا أول خطوة نحو عالمٍ طالما حلَمْنا بنَضْرته وصفاء آفاقه؛ واقعُ الأمرِ أنَّني لم أكن أفكّر في مغادرة المخيم والنزول إلى المدينة بلا عذر. نعم، كنت آتي إزمير كل جمعة للخطبة والموعظة، وفي السنة الثانية أخذت إجازة

ولـم أغـادر المخيـم قطّ، أمـا في السـنة الثالثة فلـم أكن لأغـادر المخيم إلا يوم الجمعة للخطبة والموعظة، لم يكن شيء على وجه الأرض يعدل مـذاق التعبّـد بقيـام الليل، وبالتأهّـب لصلاة الفجر علـى وقتها في صيفٍ لياليه كأنَّها الضيف، وبالقراءة حتّى السحر. حاولت أن أنظم بقصيدة -وإن لم تكن بذاك- عن مشاعري تُجاه هذه المخيمات، وليت شِعري هل استطاع شِـعري أن يُعـرِب عن شـعوري؟ لكنني لم آلُ جَهْدًا فـي التعبير عن خبايا ما في سريرتي من شوق ولذّة".

"أيـام المخيمـات" هـذا هـو اسـم القصيدة التي أشـار إليهـا، وكتب الأستاذ مقالة في الموضوع نفسه عنوانها "الزمن في المخيمات".

ومـن الأهميّـة بمكان لمن يـؤرّخ لتلك الحقبة واصطبـغ بمشـاعرها أن يصف لنا في شعره أو مقالته كيف مرَّت تلك الأيّام، وجوهرَ ذاك النشاط المتميز الذي أُعِدّ للشباب في فترةٍ حِيلَ فيها بينهم وبين الروحانيات.

الزمن في المخيمات

إن الحديث عن يوم من أيام المخيمات بل عن ساعة فيه، لا عن أسابيع أو شهور أمرٌ لا طاقة لنا به، وأنّى لنا ذلك! وهي أشبه بحياة الجنة التي تسري في ذاتيتنا وتعيش في أعماق أرواحنا وتفوق تصوراتنا بأذواقها الأخروية؛ كلّ دقيقة فيها كانت كغمام الربيع تمطرنا بالذكريات، ونحن نلقي بأنفسنا على سفوح المستقبل النورانية في هذه الأحلام، ونحيا مرة أخرى بأيام الماضي المجيد بنُورها وألوانها وبهجتها ولهجتها... وكنا نستشعر بعمق أكبر أحيانًا المحاسنَ الحاليةَ بألوان الذكريات وأضواء المثل العليا، ولربما كنا ندرك في بضع دقائق أن البقاء يحيط بمشاعرنا وأفكارنا.

كنا نستيقظ كلّ سحر عندما تهب نسمات الأنس، على خرير الماء، وحفيف الأشجار، وزقزقة الطيور وأحيانًا على نسيم عليل، فنهرع إلى السجاد الظامئ إلى سماع أنين الساجدين وآهات المتهجدين، ونشعل من جديد القنديل الذي كنا نعده للممر البرزخي، ونهرول إلى نوره عندما يشتد ظلام الليل، ثم نأخذ في انتظار شروق الشمس كما تنتظر القلوب المؤمنة البعث والحشر في قبورها.

كانت الشمس تنساب من بين أغصان الأشجار كل صباح، وترسل إلينا نشوة الأوراق بخيوطها الياقوتية الذهبية، فتغشى العيون، وتمتلئ الخيامُ والتعاريشُ بيوم جديد لامع منعش مشمس محمّلٍ بأحلى النسمات، يجعلنا نعيش في عالم من الأحلام يبعث على الحيرة والذهول.

وبعد الضحى نقع تحت وطأة لهيب حرارة الظهيرة التي ينفرد الإنسان فيها بروحه، مما يدفعنا إلى اللجوء والركون إلى أحضان أشجار الصنوبر والدلب. فكنا نتجول في حقب زمنية تتداعى فيها الأفكار بين حفيف الأوراق التي تحركها تلك الرياح اللطيفة، وعندما تشتد علينا حرارة الشمس أحيانًا تزعزعنا الوساوس القائلة: ﴿**لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ**﴾، لكن سرعان ما نفيق إلى أنفسنا جَفِلين قائلين: ﴿**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾، وكأننا في ساعات الصباح اللطيفة الجميلة الضاربة إلى الزرقة ننفتح على عالم آخر وأعماق أخرى.

كم كنا نتمنى في تلك اللحظات أن نكون شعراء حتى نترنم بتلال الدنيا المطلّة على الآخرة، أو رسامين حتى نرسم ونخلّد هذه الجماليات المتداخلة، أو موسيقيين حتى نسمع تلك الجوقات الموسيقية الطبيعية التي نسكر بأنغامها، ونشاركها ألحانها.

وبعد العصر كانت أشعة الشمس الذهبية في هذه الساعات الضاربة إلى الحُمرة تميل إلى الأفول رويدًا رويدا. فنبدأ في الشعور بساعات المساء البنفسجية العميقة البليغة. وحينما تودّعنا الشمس وهي تلوّح بمنديلها الأصفر فوق أشجار الصنوبر والدلب كنا نشعر بالغروب بكل حزن وأسى، ونجفل ونرتعد ونحن نشهد كيف يضرب الفناء والزوال بكل قوة على وجه كل شيء يذبل شيئًا فشيئا، ولم نكد ننهار قائلين: ﴿**لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**﴾، حتى نستعيد قوانا بنفحات: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، ونأخذ في الاستعداد للتجول في فضاءات الليل التي تُلجِئ الناس إلى الاستغراق في الأفكار العميقة.

ومع المساء تشتد الرياح التي كانت تهبّ في العادة حلوة لطيفة، وتصيبنا بالبرد أحيانًا وكأنها رياح الشمال. في تلك الأثناء يسكن جميع مبتهلي النهار الذين تربعوا فوق الأشجار، ولا يُسمع إلا أصوات بلابل الليل. وفي ساعات متقدمة من الليل تشتد الألوان وتعذب، وتصبح أبلغ تأثيرًا وأكثر جاذبية حتى تجعلنا نفكر في حيرة: إذا كان طريق الجنة ممتعًا كلّ هذه المتعة؛ فكيف هي إذًا؟!.

في هذه الظلمة الحالكة التي تفقد فيها المصابيح بريقها نبدو ويبدو كل شيء مختلفًا، وفي هذا الجو الساحر الذي يختلط فيه الخيال بالحقيقة يصبح أهل المخيم المؤهلون للولاية أشبه ما يكونون بالروحانيين، ويسري هذا الجو النقي في أعماقنا سريان النهر.

وعندما يحل وقت النوم تنطفئ كل الأضواء ما عدا قنديلًا صغيرًا أو اثنين. فتتذكر الأرواح الغوّاصة فناءها وتبحر في التفكير فيه وكأنها تتحنث، وتأخذ في البحث عن الماوراء من طرق شتى، وتصرّ على فتح أبواب السموات بمختلف اللغات، فتصاب القلوب بقشعريرة من جراء صيحاتها التي تحاكي أنّات إنسان عصر السعادة.

وفي أوقات معينة من اليوم تتنزل علينا الصلوات والتسبيحات والأذكار الجماعية، حتى كنا نشعر وكأن الملائكة الذين يتنزّلون بها يمسحون على رؤوسنا بأيديهم اللطيفة الرقيقة الوضّاءة.

كانت هذه الصلوات والأدعية تسري إلى أعماق أرواحنا بمعانيها التي يتعذر التعبير عنها وطلاسمها التي يصعب التصديق بها، ثم تَعرض أمام ناظرينا خرائط الرحلة السماوية.

المخيم في رأيي كان بقعة مباركة تهبّ عليها رياح المحبة والشفقة ووجود الأصدقاء. كنا هناك مثل النحل في خلية روحية، نتردد بين رحيق الأزهار والعسل اللذيذ، إحدى يدينا في الأزهار والأخرى في الخلية. ولقد توحدت هذه الأفكار والمشاعر وامتزجت بأرواحنا، ورغم مرور سنين عدة فإنني ما زلت أشعر بها بقوة وحيوية في قلبي وروحي وذاتيتي.

كانت تلك اللحظات الشاعرية النيرة التي قضيناها في المخيمات تتلون خاصة أثناء أداء العبادات ودروس الوعظ وحلقات المذاكرة وتتعمق وكأننا نحتضن الروحانيين. وكان الحنين إلى الجنة يعلن عن نفسه في أرواحنا باعتبار أنها هي الوطن الأصلي لأبينا آدم عليه السلام، حيث كنا نشعر بين أطياف الضياء بالدقائق والساعات في المخيمات والجو الأخروي المفعم بالليونة والجدية والوقار، وأن الله تعالى الذي يستخدمنا في العبودية سينجز وعده لنا. فكنا نقول في أنفسنا: "هذه هي الحياة!"

إنني لا أصدق أن هذا الماضي المبارك المنير كان عبثًا وهباءً؛ لأن تلك الأيام وإن مرت خلال حقبة زمنية وجيزة إلا أنها كانت بالنسبة لنا مرصادًا للماضي بأكمله، وخرائطَ برزخية تتبدى فيها أحلام المستقبل.

وكلما قلّبت ذكريات روحي أرى أن تلك الأيام المفعمة بالشاعرية والجاذبية والشفقة واللين ما زالت تتفتح حيوية في داخلي على الدوام وكأنها ورود تتفتح براعمها دون اعتبار لموسم أو غيره، لم تكد تذبل حتى تتفتح من جديد، فتتقد روحي بأسمى المشاعر الرومانسية، وتتجدد في ذهني ذكريات لطيفة، حتى إنني أشعر بنفسي تحت تلك الأشجار اللطيفة وكأن أصوات الجراد قد اختلطت بأصداء الطلاب ذوي الأنفاس

النورانية وتسبيحاتهم وتراتيلهم وشكلت جوقة موسيقية مختلفة. ثم أبتسم على طالعي في متعة مختلطة بالأشجان.

من يدري كم من أسرار لم تكشفها لنا تلك المخيمات!. لقد استوعبنا ما تسلل منها إلى آفاق أفكارنا وتخيلاتنا، وحاولنا عرضها بقدر المستطاع، غير أن تلك الأيام ستظل بالنسبة لي حتى النهاية أزهى فترات حياتي.

فلـو أتيحـت الفرصة للنـاس لاصطحاب ذكـرى ما فـي الرحلة إلى الـدار الآخرة فلا جرم أنني كنت سـأحمل معـي ذكريات تلك المخيمات التي تشبه أزهار الربيع في تألقها وخيالاتها وغموضها وزرقتها.

ورغـم أنني أجد صعوبـةً في الحديث عن هذا الجو الوديع في تلك المخيمـات لمـن لـم يعيشـوها معنا فإننـي وددت أن أتحـدث عنها؛ لعل رغبتي هذه تسوق المؤهلين الذين يسمعون حديثي ويرون عجزي وضعف قابليتـي فـي السـرد والحكي إلى التنقيـب عن هذه المخيمات ودراسـتها والتعبير عنها بأبعادها الحقيقية. فإن كان لحديثي منفعة بهذا القدر اعتبرت نفسي سعيدًا ومحظوظًا.

أيام المخيمات[٢٥]

إن الذين عاشوا معنا تلك الأيام المفعمة بالأحلام
حيث يهب نسيم الجِنان
سمع من سمع منهم نغمات البقاء
بأصداء فولاذية

***

لتلك البقاع أشواق وأنين
كأنها تشتاق إلى تلك الوجوه المُشرقة
فلو نطقت الأشجار والأحجار
لحدّثتنا بأحاديث ساحرة

***

تغريد الأطيار، وحفيف الأشجار، وأنين الأخيار
وأفئدة غدت لنجوم الليالي من السُمَّار
في كل مكان قلوب أوّاهة تجأر ليل نهار
نغمات ما زالت أنّات للوادي الأخضر

***

قامات تقوم حتى الصباح بالدعاء
وعيون ساهرة ذات معان بلّورية
إن هذا التضرع يماثل ما في السماء
سنوات خلَت وما زال قلبي يحنّ لتلك الأيام

***

لو رأيتَ النهر لارتعدتَ وقلتَ:
ما زالت تلك النظرات السعيدة تبتسم في قاعه
ولبادرتَ ساعيًا إليه
إنِ اليوم فذاك وإلا فغدا...

---

(٢٥) من شعر الأستاذ فتح الله.

أحداث ١٢ مارس/آذار ١٩٧١م

ومضى الأستاذ فتح الله في مسيرة الوعظ بعد أن غادر كستانه بزاري. لكنه -وهو القائل: "للأحداث لغة خاصة"- كان يرى أن الدولة على حافَة الهاوية، وفي مذكرات الجيش إلى الحكومة في ١٩٧١/٣/١٢م ما يؤكِّد ذلك؛ بدأت الاعتقالات. ولم يكن للأستاذ فتح الله أيّ هدف سياسيّ في حديثه، ولم يتدخّل في أي مسألة سياسيّة، وكان إذا اجتمع بالناس في حوار أو مدارسة بذل وسعه في تجنب أي موضوع يُزعج الناس، ورغم هذا كابد -وهو طليق- أكثر من أصدقائه المعتقلين، يعمل ليل نهار على براءتهم وإطلاق سراحهم؛ ثم اعتُقل في ١٩٧١/٥/٣م بعد نحو شهرين من صدور المذكّرة، يقول عن هذه الفترة الحرجة:

"دخلت منزلي فرأيت الأمن السياسيّ قد قلبوه رأسًا على عقب، وجمعوا ما فيه في ردهته، فقالوا لي: أهلًا وسهلًا، ومضوا في التفتيش، لكنهم تظاهروا باللطف، فوجدتهم قد أغلقوا النوافذ، وأسدلوا الستائر؛ صادروا نحو أربعين كتابًا، لكن لم يصادروا أجزاءً من كتب ذات أجزاء تفقد قيمتها بفقد بعضها، وليس فيها واحد يدينني. قلت: "هل سأتأخر، فآكلَ لقيمات؟" أردتُ أن أسدّ مسغبتي، وأن أطّلع على نياتهم، قالوا: "كُل حتى تشبع، فلا ندري متى تعود". فتناولت شيئًا من الأرز، ثم ذهبوا بي إلى قسم شرطة "تَبَجِيكْ"، فلما وصلنا حلقوا شعري وشاربي، حتى ظننت أنهم سيأتون على حاجبيّ أيضًا، ثم التقطوا لي صورًا من كلّ جانب، وقبل أن أُسَاق طلبتُ ماءً للوضوء، فجاءني عريف بقصعة فيها ماء -لست أدري

طاهرًا كان أم لا- فتوضأت، فلما خرجنا صليت العشاء، فاسترحت لأنني أمنت فوت صلاة مفروضة حتى الصباح.

زجّوا بي في حجرة صغيرة، وجردوني من كل شيء حتى القرآن الكريم ودعاء "الجوشن الكبير"، فكنت أقرأ القرآن عن ظهر قلب، أما الجوشن فشقّ عليّ تذكره، فأحزنني كلّ الحزن أنّي لم أحفظه، والحسرة تقتلني يا ليتني حفظته، كانت الحجرة كأنها مخزن ليس فيها سوى رَوْزَنَة أي كُوّة في السقف، ولما زاد العدد استبدلوا بها حجرة كأنها غرفة طعام، فهي مرقدنا الجديد، لكن كان فيها نوافذ للتنفس الجيّد، فقضينا فيها عشرين يومًا... راسلْتُ "إسماعيل بُيُوكْ شَلَبي" سرًّا، ليأتيني بالجوشن الكبير، فجاء به قُبيل العصر، فانكببتُ عليه أقرؤه سرًّا بمتعة والدموع تخالجني القراءة، سبحان الله! كأني لم أقرأه من قبل... مكثنا هنا طويلًا، كانت ليالي ألم لكنها ملأى بالأمل، ليلاء لكنها منمنمة بالأضواء؛ عدنا جنودًا بعد عشر سنوات على أداء الخدمة العسكرية؛ فهذا ضابطُ صف حزِقٌ، كلما مرَّ بنا عنَّفنا، ورأى "مصطفى بِيرْلِكْ" وهو تِرْب أبيه يكلّمه مضطجعًا، فأغلظ له في القول: "ألم تؤدِّ الخدمة العسكرية؟! كيف تكلمني هكذا؟"؛ ثم علمنا أنه يضيق بالدين والمتدينين، ولهذا يقسو علينا. كنا نقرأ ونتعبد ونبحث عن سبيل للخروج، وبدأ بعض الوطنيين يصلّون.

ثم علمت أن كل موعظة ألقيتها سُجّلت في ورقات، وكتبوا اسمي بخطٍّ عريض أعلى كلّ ورقة، ولم يخلُ حديث أصدقائي من ذكر اسمي، فعل، وقال... أمرٌ محيّر، فوكيل النيابة يسأل: ما رأيك في هذا كلّه؟؛ فأجبته برباطة جأش: "يبدو أنَّ رجالَ المخابرات لا عمل لهم، فهم يكتبون هذا من وحي خيالهم".



أول جلسة محاكمة في ١٩٧١/٩/٢م في فترة اعتقاله

غضب وكيل النيابة، وقرأ الاعترافات الموقّعة تِبَاعًا، فنظرت في التوقيعات، فعجبت! لا أدري ماذا أقول، فشعرت بمشقة يوم الحساب وأهواله، اعترافات كلّها ملفقة ظلمًا... لم ينصفني أحد ولو بكلمة حتى الآن، فقلت: "لم أفهم شيئًا مما قلت، اختلط الأمر عليّ".

ضقتُ ذرعًا بالأمر، لقد أدليت بأقوالي من قبل في ثماني ساعات تمامًا في قسم الشرطة، سُجلت أجوبتي في صفحة واحدة لا أكثر، لأن الأسئلة كلها وهمية، فماذا أقول؟ أمَّا أصدقائي فاعترافاتهم مُلزِمة، فقد كتبوها ووقّعوا عليها؛ لقد أرغمنا رجال الأمن على الاعتراف، لكن الأصدقاء لم يبالوا فقالوا الحق ولم تتناقض أقوالهم.

ذكروا بعض الأسماء وقالوا: "هل تعرف هؤلاء؟ كيف عرفتهم؟ ما الكتب التي تقرؤها؟ هل قرأت رسائل النور؟ لم أتوقع هذا السؤال فسؤال واعظ عن أمرٍ كهذا يُعد أمرًا كوميديًّا؛ قلت: قرأت شيئًا منها، سألوا

ما الذي قرأته منها، قلت: مثلًا قرأت "الكلمة الثالثة والعشرين" و"رسالة الحشر" وكذا وكذا، وكلّها كتبٌ حوكِمَت وبُرئت ساحتها مرارًا، وما زالوا يسألوني عن الكتب وأنا أسرد لهم أسماء كتب لا يعنيهم أمرها حتى قلت: لا يحضرني غير ما ذكرْت، فكفّوا عن أمر الكتب؛ لم يكن في أقوالي ما يدينني، لكن الأوامر العليا تحتِّم اعتقالي، وهذا ما حدث".

قضى ٢١ يومًا في مركز الاعتقال، وشهرًا في سجن "شِرِينْ يَرْ" وستة أشهر ونصفًا في سجن "بادَمْلي". كانت أيام السجن كَلَيالي الاعتقال في الضيق والضنك؛ فعانى من محاولة التأقلم مع هذه الظروف الصعبة، ومن وحشية السجّان التي تؤذي حتى متبلّدي المشاعر، لكن الذي أحزنه أكثر من حزنه مما عانى هو ما لقي جليسه المحامي السيد "بَكر بَرْق" من تحقير، ولما تسمّم لم يعرضوه على طبيب كأنهم يتمنون موته، بل صادروا ما معه من دواء لا غنى عنه، فتضاعفت آلام الحساسية التي كان يعاني منها ولم تعد تُطاق، وما كانوا ينقلونه إلى المستشفى إلا إذا أشرف على الهلاك.

كانت المحاكمة مصدرًا ينفُث آلامًا جديدة، أخطرها افتراءات فئة وغدر أخرى تظاهرت بالإخلاص؛ سعت المحكمة بكل سبيل لإدانة المتهمين بلا دليل، ففنَّدوا دعاواها ولم تطلِق سراحهم؛ يا لَهول ما مُنِيَ به الأستاذ فتح الله من غدر الصديق وافتراء العدوّ، لكن كل هذه المعاناة لم تحُل دون اتخاذه السجنَ "مدرسة يوسفية"، أنشأ علاقات طيبة حتى مع اليساريين، ووجدَ في هذا الظرف الخانق أناسًا برهنت فِعالهم على ولائهم واستقامتهم؛ ومن ذكريات اعتقاله أنّ بضعة مجاذيب في غرفته ضايقوه كثيرًا، ورمَوه وأصدقاءه في العقيدة، وقدّموا لهيئة المحكمة

معلومـات خاطئـة عنهـم، كان لديهم انحـراف عقائديّ خطيـر، يعتقدون أن جيشًـا مـن الجـن آتٍ لينقذهـم؛ فحاورهـم الأسـتاذ فتـح الله ليصلح عقيدتهم.

فـي هـذه الفترة توفِّي عمّـه أنور، فزاد حزنه حزنًا، ثم أُطلق سـراحه فـي ١٩٧١/١١/٩م، وعندمـا خـرج لم يجـد مأوًى فضاق صـدره بذلك، يقـول: "لما خرجنا اسـتقبلنا صـادق بك، فلما ركبت السـيارة تذكرت أنه لا مأوى لي فقلت بكل أسًى: وماذا عساي أن أفعل إذًا؟.

أدرميت

لما أُطلق سراحه قدّم طلبًا لوزارة الأوقاف ليوظف مجدَّدًا، فتأخّر الردّ، فرجع إلى أرضروم، يقول: "انطلقت من إزمير وحقيبتي بيدي وشعور غريب ينتابني، كما نزلت بها قبل ست سنوات وحقيبتي بيدي والأحزان تتجاذبني". ولما قضى مدة في أرضروم رجع إلى إزمير ليعظ في جامعي "صَحْلَبْجِي أُوغْلو" و"آلْسَنْجَق"، جاء تعيينه في ٢٣ فبراير/شباط ١٩٧٢م "واعظًا أول" بأدرميت، يقول: "بين أدرميت وإطلاق سراحي ثلاثة شهور، لكن هذه الفترة ليست فترة انتظار تمامًا، عُدت إلى إزمير بعد أن زرتُ أرضروم لمدة قصيرة، لأعظ في جامع صَحْلَبْجِي أُوغْلو، ولما اعتقلْت نقل أصدقائي أثاث منزلي إلى شقة في منطقة "صادق بك"، فلما رجعت من أرضروم استأجرنا منزلًا فورًا في "مكتوبجي" بـ ٥٠٠ ليرة.

ثم ألغت الأوقاف إذننا في الوعظ، وسرعان ما مُنِعت أنا والأستاذ "شعبان دُوز" والأستاذ "عثمان قَرا" من الوعظ، كانت الإدارة العُرفية تضغط على الأوقاف لتبعدنا جميعًا عن إزمير. وعلى وزارة الأوقاف شاءت أم أبت أن تخضع لهذا الضغط، ولا يمكن أن نعِظ إلا بقرار آخر، كان "إبراهيم علوي بك" موظفًا في الشؤون الإدارية آنذاك، فدعاني إلى أنقرة، وقال لي: "أين تريد سوى إزمير؟" كان "إسماعيل بُيُوكْ شَلَبِي" في أدرميت، فرجوت أن يكون لي جليسًا، فقلت: "أدرميت"؛ فعُينت فيها، أمّا الأستاذ شعبان دُوزْ فعُيّن في "نازِلّي"، وعثمان قَرا ﵀ في "طُرْغُتْلُو"؛ نعم، طلبت أدرميت إلا أنني لم أكن أنتوي الذهاب إليها، زارني في منزلي

مفتي أدرميت رمزي بك ومعه السيد عارف جاغان ذو الخدمات الجليلة والقاضي نجم الدين كُوَنْلي ﵀، وأصروا وكأنهم يتوسلون إليّ لأذهب إلى أدرميت: "من فضلك، ستخدم الدين هناك أيضًا!" لن أنسى ذاك الودّ، وليس لي أن أُعرِض عن رغبتهم الملحّة هذه".

يقول الحاج عارف جاغان بك عن انطباعه الأول عن الأستاذ فتح الله: "حبّ عظيم في قلبي للعلماء ربتني أسرتي عليه منذ طفولتي، نويت زيارة قبر "الشيخ إبراهيم حقي" ﵀ مؤلف كتاب "معرفت نامه" في أرضروم، فقررت زيارته مع أسرتي، وصلنا من طريق ممر زِيكَانا عبر طِرابْزُون، ثم علمنا أنه مدفون في تِلُّو، وما ضاع جهدنا إذ رأينا الشيخ محمد قِرْقِنْجي.

وعند عودتنا من أرضروم بتنا ليلة في "آيْدِنْ"، وتناولنا الفطائر المحشوة، وجئت لأحاسب فقيل لي: حسابكم مدفوع، دفعه "الحاج كمال أَرِيمَزْ" على طاولة مقابلة، لا أعرفه ولا يعرفني، لكنه رأى أسرتي محجبة ففعل ذلك... سألناه: لم فعلت ذلك؟ فقال: منزلي في طريق سفركم، أدعوكم للفطور، أول من حدثّني عن الأستاذ فتح الله هو، فلم أَعِ ما يقول تمامًا؛ وبعده مفتي أدرميت فحدثنا عنه كذا وكذا وكذا، فانتهزت فرصة لزيارة سكن كستانه بزاري بإزمير، فاعتذر الأستاذ فتح الله عن الموعظة بمرضه، وكان يسكن في كوخ خشبي؛ تحدثت إليه، وقلت: ليتك تأتي إلى أدرميت، وعلمت بعد ذلك أنه كان سيأتيها بنفسه، وعندما جاء كان "صاري خُوجة" هناك، فذهبنا معًا للموعظة، فلما انتهت ذهبت مع الشيخ صاري إلى المكتب أسأله ما رأيه فيه؟ وماذا أفعل، أألزمه؟ وعهدي بالشيخ أن ذلك يغضبه، فقال: "ماذا تقول يا بني؟

إنَّه ذو علمٍ لَدُنيّ، إنه يبيّن حقائق الإيمان. "فاستمسكت به أكثر؛ وجاءني بعد ١٩٧٢م "سليمان قَرا كُلَّه" يصر عليّ لأشاركه الأنشطة السياسية، إذ سبق أن مارست شيئًا من السياسة في عهد "الحزب الديمقراطي"، وعزفت عنها بعد الانقلاب، فقلت: عذرًا، أنظِرني أسبوعًا لأفكر، فسألت عنه الأستاذ فتح الله فعرفت أنّه لا يعيرها اهتمامًا، فاعتذرْت".

للخدمات التي تحققت خلال عدة أعوام في أدرميت مكانة خاصة في وجدان الأستاذ فتح الله، يقول: "خدمة أدرميت سبقت غيرها، قام أهلها بواجبهم، خاصة السيد عارف جاغان وابن أخيه السيد عبد الله اللذين تحمّلا كثيرًا من النفقات، علاوة على ما يأتي من القُرى للطلبة الفقراء من مواد غذائية كالزبد والبيض والجبن واللبن".

مَغْنِيسا

أمضى الأستاذ فتح الله سنتين وأربعة أشهر في أدرميت، ثم عُيِّن في ١٩٧٤/٦/٢٩م واعظًا أول في مَغْنِيسا، والأمر فيها أصعب مما عليه في إزمير، يقول: "أقبل كثيرون على المواعظ، فالمسافة اقتربت والعوائق ارتفعت، لكنّ مَغْنِيسا لم تتحمّس للخدمة؛ ولم تأتِ لها بجديد، فكل ما فيها من وعظ وصحبة ومخيمات وغيرها امتداد للماضي؛ كلّ شيء كما كان، نعم ربما توافَد الناس فيها أكثر من أدرميت؛ لكن نسبته إليها خطأ، فالخدمة في تطور دؤوب بفضل الله ﷻ؛ أمّا أدرميت فقضيت فيها سنتين ونيّفًا بلغت الخدمة خلالها حدًّا أَقَرَّ عيني رغم أني أتيتها على مضض -ولله في ذلك حِكَم- بل فكرت بالاستقالة، ولعلّ الأُلفة تفسِّر هذا؛ فما أشقّ أن يفارق المرء إِلفَه إلى غيره، فأخلائي في إزمير، وفراقهم كهجران الأحبّة لا يُطَاق".

في مطلع رمضان الموافق ١٩٧٤/٩/٢٠م بعد نحو ثلاثة شهور من تعيينه في مَغْنِيسا توفي والده رامز أفندي، فتزلزل من الأعماق، وبدا هذا في وعظه وحديثه عن هذا الحدَث في مذكراته، يقول عن حقبة ما قبل الحدَث بقليل: "أجل، كان عام حزن عندي، فيه مات صديقي العزيز القاضي نجم الدين كُوَنْلي في أدرميت، وبعده بنحو شهر توفِّي والدي؛ وقبيل وفاتهما رأيت رؤيا، رأيت مرة أو مرتين أنّ طائرتين تبحرانِ في أعماق السماء حتى اختفتا، وها قد غاب الفرقدان في شهر، اللهم فبلغهما رضاك.



جامع مُرادية الذي كان يعظ فيه الأستاذ فتح الله بمَغْنِيسا

ويوم تنفيذ التعيين في مَغْنِيسا قبّلت يد أبي وقلت: "أتأذن لي؟ سأباشر عملي"، فقال: "انتظر إلى الخميس القادم"، ثم توقف وفكّر وقال: "اذهب، فهنا عينان اثنتان، وهناك آلاف العيون تنتظرك"؛ فعدت إلى إزمير، ولم يمض أسبوع حتى جاء نعيُه يوم الخميس، فعجِلْتُ إلى الحافلة، ومعي يوسف بَكْمَزْجي وكُوسَه محمود، وشيّعَنا مصطفى بِرْلِك إلى موقف الحافلات، فكانت المواصلات ميسّرة، ركبنا الطائرة من أنقرة ونزلنا بأرضروم ظهرًا.

الأستاذ فتح الله يزور قبر والده رامز أفندي في قرية قُورُوجُق في ١٩٨٨/١٠/٢٠م

كم أحزنني أنني لم أكن بجواره لحظة الوداع، وكم أغمّتني غفلتي عن كرامته لما قال: "اذهب بعد الخميس القادم!" فذاك جرح ما زال يلتهب في أعماقي، وأنّى لي بأبٍ مثله؟

كان أبي دقيقًا في حياته، الصلاة هي جلّ ما يشغله، بكَّاء، وقته ثمين، إذا رجع من الحقل يتناول كتابًا قبل أن يخلع نعليه فيقرؤه ريثما يحضر الطعام، للقراءة عنده متعة خاصة، لسانه رطبٌ دائمًا إما بالقرآن الكريم وإما بتَكرار ما حفظه من شعر عربي أو فارسيّ، أنا لا أتذكر أنني حفظت قصيدة البردة بنفسي، ولكني حفظتها من كثرة تكرار والدي لها. وكذا الأمر في الشعر الفارسيّ الذي كان يسرده أبي في وعظه، كان يملأ وقته كلَّه بالعمل الصالح الزّاكي، ولا يعرف الفراغ، وله فضل عناية بالتفكر".

ومضى الأستاذ فتح الله يعِظ في أماكن كثيرة إلى جانب المساجد ويدرّس الطلاب، ويحاضر في مجالات مختلفة داخل الوطن وخارجه، وفي مقاهي المدن عامّة وإزمير خاصّة.

المحاضرات وحديث المقاهي:
كي لا يبقى قلب لم تمتد إليه يد

ألقى الأستاذ فتح الله أولى محاضراته بجامعة أرضروم عن مولانا جلال الدين الرومي، فتركت أثرًا بالغًا في المحاضِرين والحاضرين كما سبق، وكانت الثانية في ندوةٍ نُظِّمت في "الهلال الأخضر" بإزمير، وحظيت محاضرته "التقنيات والعلوم الطبيعية في ضوء القرآن" باهتمامٍ كبير. وهاتان المحاضرتان كانتا استجابة لرغبة الناس لا لبرنامج معين. وفي هذه الفترة كان يلقي دروسًا في المقاهي. وهذا محرّم بك قد شهد مسامرات المقاهي الأولى وحذِقَ ظروفها وغاياتها، يقول: "جاء الأستاذ فتح الله إلى كستانه بزاري في شهر ١٩٦٦/٧م، كان واعظًا ذا أسلوب لم نعهده في الوعاظ من قبل، فهو ليس كغيره شكلًا ومضمونًا، فمثلًا عندما خرج ليعظ راقبنا صعوده على المنبر بشغف، ظننّا أنه كما هي العادة سيرتدي تلك الجبة السوداء جُبّة الأستاذ يَشار المعلقة على الجدار، ثم يرقى المنبر، لكنه طلع علينا بجُبَّته البيضاء، فانفعل الناس عندما رأوه، وهبّوا من مجلسهم، حتى إننا نسينا تشغيل المسجِّل، فمن يومئذ أصبحنا نغدو إلى المسجد كلّ جمعة مبكِّرين لنستمع إليه.

عُنِي بالشباب، ومعظم روّاد المقاهي منهم، كان روّاد المسجد معدودين، فقال: إذا كان الشباب لا يأتون، فلنذهب نحن إليهم، فبدأ بمنطقتنا "مَرْسينْلي"، فحجزنا المقهى لأوّل لقاء بشقّ الأنفس، ولا أحد يعلم أنه سيتحدَّث، والمقهى مميّز، فهو مكتظ بالطلاب والشباب.



الأستاذ فتح الله في لقاء بأحد المقاهي في غازي أمير بمدينة إزمير عام ١٩٦٨م

وفـي أول لقـاء بـدأ الأسـتاذ فتـح الله بالحديـث، وكنّا قـد اقترحنا أن نقدِّمـه للنـاس، ونمهّـد للموضـوع، فأبى وقـال: ليكـن تلقائيًّا؛ أتذكر أنـه بـادئ الأمـر قال: "حديثـي إليكم ليس هـذا مكانه، لكن أسـبابًا عدّة منهـا الترهيب من المسـجد باعـدَت بينكم وبينه فأتينـا إليكم، فلما تعذّر على منبر المسجد أن يبلّـغ الحقيقة، جئنا إلى طاولة المقهى..."؛ فغمغم مـن أبـوا أن تتحـول الطاولـة إلى منبـر فيما بينهـم، وأغرقوا في السـب والشـتم والتهـم والتجريح، فلم يُعِرْهم الأسـتاذ بـالًا، ومضى في حديثه سـاعةً في جوٍّ حَرِج، ثم توافد الناس حتى ضاق بهم المقهى، فبات ليلَه يحدّثهم نحو ثلاث سـاعات ونصف".

فـي مطلـع عـام ١٩٧٥م نُظِّمـت سلسـلة محاضـرات توضِّـح لمن لا يأتون إلى المسجد رؤية الإسلام في مواضيع عدة شغلت الساحة؛ يقول الأستاذ فتح الله عن الهدف والنمط: "ضاق المقهى بالناس، ولما كان لقاء

حشـد من الناس في مقهى يتطلب رخصة طبقًا لقانون التجمع والتظاهر، فتعالَوا بنا ننظّم محاضرات في أماكن أكبر وحشـود أكثر بالرخصة نفسـها؛ فكانـت المحاضرة التاليـة عن "نظرية التطوّر" في المعرض الدولي بإزمير، وفي القاعة خمسة آلاف مقعد، فإذا بالناس خارجها أكثر ممن في داخلها، فصـار المعـرض كمصلّـى العيـد، وصلى النـاس المغرب على العشـب، ومن حضروا كانت لهم مشارب شتّى، فبعضهم يتساءل حائرًا: ماذا يمكن أن يقول واعظ في هذا الموضوع؟ وآخرون ساقهم حب الاطلاع.

"الجيـل الذهبـي" عنـوان محاضـرة وردَ على قلبي فجـأة كنايةً عمن سـيحملون على عاتقهم مسـؤولية المسـتقبل، ثمة مسـرحيّة بهذا الاسـم مترجمـة عـن العربية تتحدث عن الرعيل الأول، لمـا عثرْتُ عليها تأملت صفـات هـؤلاء الربانييـن الذيـن هم روح تبعـث فينا الحياة بعـد الموت، فأجملتُها في المحاضرة لتكون دعوة للجيل الذهبي".

كان موضـوع نظريـة التطـور قـد شـغل الـرأي العـام التركـيّ كثيـرًا في السـتينات والسـبعينات، وسـاد اتجاه ماديّ لا يقبل الناس خلافه، كأنه هو الحقّ دون ما سواه، فتأثر كثيرون بهذا، وعانوا أزمة عقائدية، ولم يفنَّد هـذا المفهـوم في ضوء مبادئ الإسـلام والعلم الحديث رغـم أنّه يناقض حديث الإسـلام عن نشـأة الخَلْق، وادّعى بعض الناس أن الإسـلام غُلِب أمـام هـذه النظريـة؛ وفي بيئة كهـذه جـاءت محاضرات الأسـتاذ فتح الله مدوِّيةً؛وظَّف فيها العلم الحديث، والعلوم الإسـلاميّة، وكشـف عن خبايا المسائل المستعصية، ولم يكن يعترض أو يوافق من يؤيّد الاتجاه الماديّ بل يكتفي بعرض ما في الإسلام من ثراء له فيه سعة اطلاع، ويجيب بكلّ ثقة على قضايا العصر إجابات مطمئنة مقنعة.

جذبت مواضيع مواعظه الأنظار، ففي حديثنا عن أيام إقامته بأدرنه ذكرنا أنه خالف المعتاد، واتخذ مما يواجهه المسلمون من مشكلات عصريّة موضوعًا لمواعظه، دون أن يدخل في أمور سياسية. كانت أسئلة المسجد تأتي مكتوبة، جاءته مئات الأسئلة المتنوِّعة، وإذا تأمّلت أجوبتها في سلسلة "أسئلة العصر المحيّرة" تجد أنها قارب النجاة لكثير من العقلاء اليوم، ففيها ما له صلة بالطب والاقتصاد والأدب والحقوق، وهي مقنعة ومستمدة من العلم الحديث والتراث، وتدلّ أنّ الإسلام عالج الموضوعات الإنسانية كافَّة، وتوضّح بأسلوب متميز لا حرَج فيه أنّ الإسلام هو العلم.

كانت محاضرة "الجيل الذهبي" بمنزلة البيان العامّ، ففي مطلع القرن العشرين تنوَّعت تسمية العلماء للجيل المثالي، فسمّاه بديع الزمان "الجيل الجديد"، وسمّاه الشاعر الكبير محمد عاكف "جيل عاصم"[٢٦]، وأطلق عليه نجيب فاضل وسَزائي قَراقُوج، ونور الدين طُوبْجو وغيرهم أسماء عدّة... أما الأستاذ فتح الله فاستلهم حديثه عن الجيل المثالي الذي ينشده من آراء هؤلاء خاصّة بديع الزمان، فسماه "الجيل الذهبي".

استهل المحاضرة بقوله: "لا بد لأي جيل من الأجيال من صفات مكنونة تجعله ذهبيًّا، وإلا لما استحق هذا الاسم"، إنها صفات ضرورية لجيل يستشعر المسؤولية تجاه العقيدة والفكر والحركة. ورسم في مقالاته بمجلة سِيزِنْتي، وكتاب "الموازين" و"العصر والجيل" صورة الجيل الذهبي جسدًا وروحًا، وصورة حركة أطلَقَ عليها فيما بعد "حركة المتطوعين".

كانت أول موعظة له في إسطنبول في ٢٦ أغسطس/آب ١٩٧٧م بمسجد "يَني جامع" في أَمين أُونو، تحدث عن التزام المسلم والصفات

---

(٢٦) عاصم هو ابن محمد عاكف.

التي عليه أن يتحلَّى بها، وأنّ التغيير يبدأ من الفرد، وكانت الثانية في ٩ سبتمبر/أيلول ١٩٧٧م في مسجد "السلطان أحمد"، حضرها رئيس الوزراء آنذاك "سليمان دَمِيرَلْ" ووزير الخارجية "إحسان صبري".

في ٢٨ سبتمبر/أيلول ١٩٧٦م نُقِل من مَغْنِيسا إلى مركز بُرْنُوَا في إزمير، وعقد هناك جلسات "الأسئلة والأجوبة" السالفة الذكر، يقول عن رغبته في النقل: "طلبت إزمير، فعُيّنت في بُرْنُوَا، فهي من إزمير، وهذا خير، فبُرْنُوَا في الوعظ والمسامرات امتداد لمغْنِيسا، فاستمرّت سلسلة المواضيع؛ وعقدت ندوة للأسئلة كلّ أسبوع، وأتيحت الفرصة للحركة أكثر، فكانت الدعوات تأتيني من كل حدب وصوب، فأحاول أن ألبِّيَها".

لم يقف عند الوعظ والمحاضرات وحوار المقاهي بل رغب بالسفر خارج الوطن لتمتد يده للناس جميعًا، قال: "من أين الطريق لاستمرار هذه المحاضرات خارج الوطن"، اقتنع بضرورة ذلك خاصة بعد أن رأى ثمار المحاضرات، فأرسلته الأوقاف في سلخ عام ١٩٧٧م إلى ألمانيا، فحاضَر وحاور في برلين، وفرانكفورت، هامبورج، وميونخ. وكان يتطلع إلى السفر لبلدان أوربية أخرى لكن هذا لم يتحقق لعدم توفر الإمكانيّات.

انطلقت مجلة سِيزِنْتي في فبراير/شباط ١٩٧٩م وعلى غلافها بيت للشاعر محمد عاكف:

إن لم ترحم نفسك　　　فهلا أولادَك رحمتَ

كان الأستاذ فتح الله يكتب المقال الرئيس؛ وفي مقاله الأول "**لعلك تكفّ عن البكاء يا بنيّ**" أبان عمّا يستشعره من مسؤولية تجاه الإنسانية جمعاء، والمثُل والآمال التي يحملها لرفع المعاناة، يقول -وهو ينفث أشجان روحه للأمة-:

لعلك تكفّ عن البكاء يا بنيّ

سـلكنا هـذا الـدرب، لنشـاطرك آلامك، ونُسـكن همومـك، ونَغْمُر قلبك، فلا تبتئس منا! تأخرنا فلم نسـعفك في حينه، لكن أيقِنْ أنّنا نحمل بين جوانحنا دائمًا أنين يعقوب عليه السلام وعشق زليخا وهجرانها.

كلما أبصرتُ قدّك السـويّ منقصمًا تمـزق قلبي وانفطر؛ وكم انحنى ظهـري واغرورقت عيناي أمام نظراتك الحزينة البائسـة، أردت أن أقتبس مـن أُغنيتـك نغمة لكل صرخاتي، وأتحدث عـن ملحمتك، فأحرَق أنينك وجداني، وهالَني أمرك، وأصبحت مهمومًا حزينا لما أصابك...

زد على ذلك أنني كنتُ أستحي أن أمد يد العون إليك، أو أن أقابلك بشـفقةٍ زائفة؛ إذ إنهم ضيّعوك على مرأى مني ومسـمـع، وآذوك فآل أمرك إلى هذه الحال. لقد رأيتُ ما حدث عندما أخمدوا جذوة عقلك، وشغلوك ببطنـك عـن قلبـك، ومع ذلك لم أسـتطع أن أمدّ يـدي المثقلة بالذنوب إليـك... ورغم اسـتغاثتك لم أسـتطع... قـدَرُك قدَر "فاؤُسْـت"، إذًا فمن "مَفِسْتُو"؟ من فعل بك كل هذا؟.

كنتَ في قرار مكين، ومسـتقر آمن، ورزق مقسـوم، وكان كل شـيء علـى مـا يـرام، ثـم أتيت إلـى هـذا العالـم الموحـش، فما وجدت شـيئًا ولا عرفت أحدًا؛ لم يسمـع أنينك وصراخك أحد سواك، ويكأنّك ندمتَ ألف مرة على خروجك، لكنه قدرك المحتوم.

أمـا مـن يطوفون بك فمنتهى سـعيهم مَـلْء معدتك وتلبيـة رغباتها، فمِـن يومئذ وأنت تصرخ صراخًا يحـرق القلوب، وهم يغفلون عنك بدءًا

من ذلك الحين، وقد كنتَ حِبّهم ومبعث سرورهم في أيديهم وأحضانهم، كنتَ وردة فريدة على الصدور، لكن شـيئًا من ذلك لا يعود عليك بشيء، فكنت غريبًا، وحيدًا، بلا أنيس...!

فماضيـك رحِم حاضرك، وحاضـرك رحِم مسـتقبلك المبهم، فأنت في مفترق طرق يا بنيّ!

ائذن لي أن أكون حاميك في هذا العَناء، أعزف بريشـتي من أجلك، وأُسـمع روحَـك أنينـي. إننـي أطلب الصفـح منك باسـم كل المجرمين ورأسـي تحـت قدميك. إننا خذلنـاك وأنت بين العاصفة والنار تسـتغيث، فاعـف يـا بنيّ عمن كانوا سـبب وجـودك في سـبيل لذة عابرة، فأشـبعوا بطنك وأظمؤوا قلبَك، وشـغلوك عن الخلود بفترة مؤقتة، وزودوا روحك بالسـفاهة والوقاحـة، وأوقعـوك فـي خضم البـؤس والتعاسـة. فاعف عنا يا بني.

فترة انقلاب ١٢ سبتمبر/أيلول ١٩٨٠م:
الحنين إلى الوعظ

دعـا الأسـتاذ فتـح الله الناس إلـى الاعتـدال والفطنة فـي الحوادث الاجتماعية والسياسـية التي تسـارعت وتيرتها في تلـك الأيام، نبههم إلى أن المؤمـن أس الأمـن، فعليه أن يتجنب المشـاركة في النزاعات الهدّامة، وما يُرفـع من شعارات لا نفـع فيها للإسلام ولا للأمة بل هي ضرر محض؛ فهـذه الحـوادث مكيـدة لنا دبّرتهـا عدة قوًى خفيـة، فلا ينبغـي أن نُقحَم فـي لعبة كهـذه؛ وفي مواعظه قبـل انقلاب ١٩٨٠م بيّـن للناس خصوصًا للشـباب الخطَرَ المحـدِق بهم، كانت آخر موعظة قبل الانقلاب بأسـبوع في بُرْنُوَا، والتقى بعدها بـ"طُرْغُوت أُوزال" في غرفة إمام المسجد.

يحلّل الأحداث قائلًا: "إن الجو الذي ساد البلاد قبل ١٢ سبتمبر/أيلول ١٩٨٠م، كان ينـذر بانقلاب، وكان هذا واضحًا للعِيان، حتى إن من حذَقوا الأحـداث أيقنـوا بوقـوع انقلاب، ولا حاجة في هذا لا إلى فراسـة ولا إلى كرامة، فمن هنا كنت أشعر به كسائر الناس، وما تحدثت عنه مبنيّ على هذا.

أعتقـد أنه كغيره من الانقلابات، فالشـباب في الشـوارع مسـلّحون، والشـعارات تهتـف لماركـس ولينيـن، والحقـد والكـره أعمـى البصائر؛ وانتشـرت سياسـة التخريب، وأصيب المجتمـع مجددًا بحالة روحية تعج سـمة للدُّوَل المتخلفة كالتحريض على التدخل العسـكري وفكرة "لنهدمْ أولًا ثـم نخطّـط". فالمنـاخ الـذي لا يُقبل فيـه الرأي الآخَـر، ولا تتعايش فيـه الجماعـات، يتيح الفرصة للتدخـل، وتغدو فيه أتفـه الخلافات مثارًا

للنزاع؛ والنتيجة هي القضاء على الحرية والديمقراطية بتوتُّر مُصطنع بين يمين ويسار.

ومن المفيد هنا أن ننوه بأن بعض المؤسسين لهذا الانقلاب قاموا بحراك ملغوم إلا أن الله شاء أن يتسبب حراكهم في انتفاضة مجتمعية. وأبطلوا لُعبة بعض المخاطرين التي تجعل من تركيا سفيرًا للاتحاد السوفيتي، عندما أتى الاتحاد السوفيتي السطح المشرِف على السقوط، وحالوا بعلمٍ أو بلا علم دون سقوطنا في هاوية سحيقة، وربما مهّدوا لأناس محترمين السبيلَ لخدمة الوطن".

لم تدعه شرطة إزمير وشأنه بل ضيّقت عليه، فقدّم طلبًا لتغيير محل عمله فعُيّن واعظًا أول في "جَناقْ قَلعه" في ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٠م، لكنه لم يتمكّن من العمل لمرض أصابه، حتى أُعلنت حالة الطوارئ، ووقعت إجراءات تعسفية منعته القيام بعمله، ثم صدرت فيه مذكرة اعتقال، فاستقال في ٢٠ مارس/آذار ١٩٨١م من إدارة الوعظ؛ لكنه استمرّ في الخدمة تحت نِير إجراءات الاستبداد، ورغم الانتخابات الحرّة إلا أن الإجراءات التعسفية ما زالت مفروضة عليه؛ فطاف الأناضول، فتعرّف على أهلها عن كثَب، ومهد لنشر الخدمة فيها، وزار أَخلاط بلد أجداده، فاعتُقل في مدينة "بُرْدُرْ" في ١٢ يناير/كانون الثاني ١٩٨٦م، وحققوا معه فترة طويلة، ثم رُحِّل إلى إزمير، فلما لم يعثروا على ما يدينه أخلوا سبيله.

إلى كرسيّ الوعظ من جديد

في ليلة الإسراء والمعراج الموافق ٦ إبريل/نيسان ١٩٨٦م افتتح مسجد "جَامْلِيجا" فألقى الأستاذ فتح الله أول موعظة بعد نحو ست سنوات من الانقطاع؛ أفصح فيها عن آلامه وأشواقه إلى الوعظ وإلى الجيل الجديد، فكان يحكي ويبكي كما عهدناه في الوعظ.

سافر للحجّ في ٦ يونيه/حزيران ١٩٨٦م، وأثناء حجه صدرت مذكرة باعتقاله بناء على دعوى ضده، فأصر أصدقاؤه على أن يجاورهم في المدينة المنوّرة، فأبى؛ أراد أن يثبت براءته، فلو هرب لكان ذلك إقرارًا بخطأ؛ لذا خاطر وتجشم الصعاب، فتسلل من سوريّا إلى كِلِيس فإزمير ولم يُقبض عليه، وسلّم نفسه هناك إلى شرطة الطوارئ، فلما حققوا معه ثبتت براءته وأُخلِي سبيله.

صدر أول عدد لمجلة "يَني أُمِيد (الأمل الجديد)" في يونيه ١٩٨٨م، فبدأ يكتب المقال الرئيس للمجلة، وكان المقال الأول بعنوان "في رحاب الجو المتواضع للأمل الجديد".

وفي ١٣ يناير/كانون الثاني ١٩٨٩م بدأ مواعظه في جامع "والده سلطان" بأُوسْكُدار في إسطنبول وموضوعها رسولنا الأكرم ﷺ، وجُمعت في كتاب "النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية"، واستمرت حتى ١٦ مارس/آذار ١٩٩٠م؛ ولهذا الكتاب مكانة خاصة بين كتب السيرة، فهو يعبِّر عن فقه الأستاذ فتح الله لحياة النبي ﷺ؛ بيّن فيه أن كل مرحلة من حياته ﷺ لها وجه يضيء لنا الطريق اليوم، وتمثل نموذجًا حيًّا يتأسى

بـه المسـلمون، فهو ليس سـردًا تاريخيًّا معرفيًّا، بل بحـث حياته ﷺ كأنها كتاب، فأمعن في كل سطرٍ فيه وحلّله، ويجلِّي الكتاب حبّه الجمّ للرسول ﷺ، فـكلّ جملـة فيه تقطر حبًّـا وتوقيرًا، اسـتهل الكتاب بهـذه الكلمات: "إن تسـليط الأضـواء علـى شـخصيته السـامية ﷺ، وعرْضَهـا وبيانهـا، ثم تقديمها بوصفها منقذ البشـرية، وإكسـير المشـكلات المستعصية على الحلّ والأمراض المزمنة، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهـل لـه؛ كل ذلك كان رغبة ملحة لديّ -كما هي عند كثيرين- وهاجسًـا مـن هواجـس فكري ومشـاعري، وموضوعًا مهمًّا لا سـبيل للوقوف أمام سحره وجاذبيته أو الفَكاك منه.

إنه ﷺ فخر الإنسانية جمعاء... فمنذ أربعة عشر قرنًا يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سـماء الفكر عندنا.. يقفون وراءه خاشـعين قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه قائلين: "أنت الذي نفخر بانتسابنا إليك".

فلو عرفته البشـر، لجُنّوا عليه، وهاموا في حبِّه، فإذا ذُكر النبي ﷺ إذا بأعينهم تفيض من الدمع شـوقًا، فيُهرعـون للدخول إلى حضرته الطاهرة وإلـى عالـم النبـوة، وجَوّه النقـي، وترسـلهم الريح إلى حضرتـه، لتبعث من رماد القلوب نار العشق الخامدة".

ويرسـم "النور الخالد" معالم فكر الأسـتاذ فتح الله من خلال أسلوبه وفقهه لحياة نبينا ﷺ وتصويره لها، لا سـيما أنّه لا يكترث بحركة أو فكرة لم تصدر عنه ﷺ.

لـم يقتصـر على خطبة الجمعة، بل كان يعظ أيام الآحاد في مسـاجد السليمانية، وبَنْديك، والسلطان أحمد، وباقِرْكُويْ يَني مَحلّه في إسطنبول،

وحِصار وشادِرْوان في إزمير؛ وفي رمضان كان يعظ بعد الإفطار حتى التراويح في مسجد الفاتح، واستمر يعظ تطوّعًا حتى كانت آخر موعظة له في ١٦ يونيه/حزيران ١٩٩١م. وحضر عشرات الآلاف في الأناضول مواعظه، وتحدث في مواعظه الأخيرة عن النظام العالمي المحتمل بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، واقترح مد يد العون والمساعدة للمسلمين في آسيا الوسطى، صرَّح -قبل انهيار الاتحاد السوفيتي- بأنّه سينهار قريبًا، لذا فلا بدّ من عمل شيء جديد، جاءت تطلعاته هذه بغتة، وتلك براعة في تحليل الأحداث الاجتماعية والسياسية العالمية، ثم إنّه ضرب في وعظه في المساجد بنصيب من معاناة تكشف عنها انهيار الاتحاد السوفيتي، ومن آلام من يرزحون تحت وطأة الاحتلال، كان يتألّم لأجلهم حتى لكأنه يكاد يخرّ من على كرسيّه مغشيًا عليه، فتتوسل العبرات إليه، عِلاوةً على أنّه يحض أبناء الأناضول على مساعدتهم وتبنّي أمر أحفادهم،



زيارته للرئيس طُرْغُوت أُوزال بعد العملية في مستشفى هوستون بأمريكا في ١٩٩٢/٥/٥م

فسـرعان ما اسـتجاب النـاس لدعوته، وفتحـوا مدارس تركية فـي العالم خاصَّةً في آسيا الوسطى.

وفـي سـنة ١٩٩٢م زار أمريكا وعـاد فيها الرئيسَ التركـي "طُرْغُوت أُوزال" أثناء علاجه بعدما أُجريت له عملية جراحية.

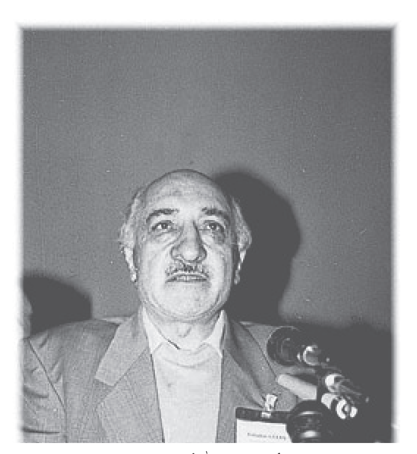


الأستاذ فتح الله عند ضريح أمِّه في قارْشِ ياقا بإزمير وهو يدعو لها

وفـي يوم الاثنيـن ٢٨ يونيه/حزيـران ١٩٩٣م توفيت والدته السـيدة رفيعـة فـي إزْمير، فأمَّ الناس فـي الصلاة عليها يوم الأربعاء بمسـجد كلية الإلهيـات، يقول: "هي سـبب وجودي، وأوّل معلِّمة ومرشـدة في رحلتي التعليميـة"؛ وعن منزلة الأمّ يقول: "الأمّ فوق كلّ الكائنات الفانية، تمشـي ورأسـها فـي السـماء والجنة تحـت قدميها، عزيـزة عزّةً تجعـل من تراب حذائهـا كحـلًا لعيوننا، كريمة كرامةً تبلـغ بالشـفاه التـي تُقبِّل قدميها مقام الشفاه التي تسجد تحت العرش، أنينها لا ينقطع، تئن ما عاشَت وتتألم..."

مرحلة الحوار مع مختلف الفئات

ابتداءً من عام ١٩٩٤م قابل الأستاذ فتح الله فئات كثيرة من الناس والإعلاميين، وشهد افتتاح وقف الصحفيين والكُتّاب في ٢٩ يونيه/حزيران ١٩٩٤م رئيسَ شرفٍ له، وعُنِي في كلمته بالحوار وقبول الآخر في المجتمع وفي العالم أجمع.



الأستاذ فتح الله أثناء كلمته
في افتتاح وقف الصحفيين والكُتّاب

كان مصطلح "خوجة (الشيخ)" إذا أطلق بين الناس تبادر إليهم الشيخ التقليدي، فلما ألقى الأستاذ فتح الله محاضرتَه رأوا فيها -فضلًا عن معرفته بالعلوم الإسلاميّة- سَعة اطلاع على الثقافة التركية والعالمية، فانبهروا به لا سيما أولئك الذين لم يعرفوه عن كثب، وراح مئات المثقفين يشيدون به في مقالاتهم التي جُمع بعض منها في كتاب "الأستاذ فتح الله من الشَّرنقة إلى الفراشة"، ويبرهنون أنَّه ليس كغيره، ويعبرون بدهشة واحترام عن أهمية شخصية كهذه للأوساط العامة التركية والعالمية.

وفي ٣٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٤م كان لمقابلته مع رئيسة وزراء تركيا "طَنْسُو تشِلَّرْ" صدًى كبير في الصحف.

في يناير/كانون الثاني ١٩٩٥م أجرت معه جريدتَا "صباح" و"حريتْ" حوارات عن قضايا الساعة، وطبيعة فكره، وفي ٢٠ مارس/آذار التقى "بُولَنْد أَجَوِيتْ"(٢٧)، ولم يكن لقاء سياسيًّا بل بحث معه موضوعات أدبية وصوفية وفلسفية.

قال أَجَوِيت ردًّا على طلب الزيارة: "أهلًا به، سأقابله عندما آتي إزمير".

أما الأستاذ فتح الله فقال: "تقديري لكبار رجالات الدولة يقتضي أن آتيك لا أن تأتي إلي".

قال أَجَوِيت معبِّرًا عن سعادته بالزيارة: "أرى أن الأستاذ فتح الله وأتباعه يسهمون كثيرًا في عملية التطور الديمقراطي".

والتقى في مايو/أيار وتاليه كلًّا من حِكْمَت جَتين، وطَنْسُو تشِلَّرْ، ومسعود يِلْماز.

وقال عن انتقادات لقاءاته في مؤتمر صحفي عقد في ٢٢ يونيه/حزيران ١٩٩٥م: "من الصعب التوفيق بين استهجان اللقاءات التي أقوم بها وبين سمات المنتقدين ومقاماتهم ومستواهم".

وفي ٢٦ مايو/أيار ١٩٩٥م منحه وقف الجمعيات التركية جائزة "نِهال آتْسِز لخدمة الأمة التركية" مكافأة على المدارس التي افتتحها في دول آسيا الوسطى.

ظهرت براءته من كلّ التهم، وفي ٣٠ يونيه/حزيران ١٩٩٥م حصل على تعويض معنوي، قدره خمسون مليون ليرة تركية من صحفي، لما تبين كذب ما كتبه من أسفار باطلة عنه؛ وتبرع الأستاذ فتح الله بالمبلغ

(٢٧) مصطفى بُولَنْد أَجَوِيت (١٩٢٥-٢٠٠٦م): سياسيّ وشاعر وكاتب تركيّ بارز؛ تولى رئاسة الوزراء خمس مرات، وكان من رُوَّاد اليساريين في تركيا.

لوقـف "مَحْمَدْجِـك"[٢٨]، فمنحه الوقف في ٢٥ يوليه/تموز شـهادة تقدير؛ وفـي هـذا العام أجرى معه الإعلامي رَخاء مختار حـوارًا في قناة TRT [٢٩]، وكـذا أُورال جَالِيشْـلَار بجريدة "جمهوريت" واسـتمر حواره سـبعة أيام، وأيوب جان بجريدة "زمان" واسـتمرَّ حواره خمسـة عشر يومًا، وطبـع في كتاب "جولة الآفاق مـع فتـح الله كولن".

كان حديثـه ينـمّ عن شـخصية لها باع في شـتّى العلـوم؛ وقد تركت ردوده القائمـة علـى العلـم من فـن، وأدب، وعلم اجتمـاع، وعلم نفس، وفلسـفة، وسياسـة، كثيرًا من المثقفين الأتراك في دهشـة وحيرة، واتفقوا على أنَّ ماهيتها فريدة في بابها.

وفي هذا العام زار جريدة "مِلّيَتْ" والتقى كُتَّابها ورؤسـاءها، وأجرى معه التلفاز الهولندي حوارًا.

وفـي عام ١٩٩٦م أجرت معه وسـائل إعلام متنوعة حوارات، ومنها تلفـاز فَرْنَـا البلغـاري، وجريـدة "تـرود"، والتقـى في هـذا العـام البطريق بارثلوميوس لتفعيل لغة الحوار بين طوائف مختلفة.

ولمـا وقعت حادثة صُوصُرْلُـق[٣٠] في نوفمبر/تشـرين الثاني من هذا العام استغل بعضُ الناس الحدثَ لإدراج اسم الأستاذ فتح الله في القائمة السـوداء، ليعيقوا سـير أنشطة الخدمة التي أسـهم فيها، فأدلى بتصريحات لوسـائل الإعلام، وأثبت أنها تُهَم مُلفّقة، جاءت في فترة حرِجة يسـتهدف أنـاس منها إقحامه في مشـكلات البلاد السياسـية، فكـذّب هذه الدعاوى مرارًا وقاضاها فأثبت التحقيق براءته.

(٢٨) وقف مَحْمَدْجِك: أُسِّـس لمسـاعدة الجنود المحاربين وأقارب الشهداء ومصابي الحرب في الجيش التركيّ.

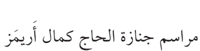
(٢٩) الاسم العامّ لقنوات الإذاعة والتلفاز الرسمية للجمهورية التركية.

(٣٠) اكتشـاف علاقات غير شـرعية بين الشرطة وعصابات المافيا وبعض العشائر إثر حادث مروري وقـع في مقاطعة صُوصُرلُق غرب تركيا بتاريخ ٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٦م.

ساءت صحته كثيرًا إبان هذه الأحداث، وزادها سوءًا وفاة صديقه الوفيّ الحاج كمال أَرِيمَزْ(٣١) في ١٣ مارس/آذار ١٩٩٧م، فأمّ الناس في الصلاة عليه وهو يبكي. يقول الأستاذ فتح الله عن الحاج كمال: "كان الحاج كمال ثريًّا، له كروم ومنجم ألماس يغني سبعة أجيال، ذكرت له يومًا أمرًا لا أدري كان صوابًا أم لا: "ينبغي أن لا يكون لدينا ولو منزل يؤوينا، تعال لنعيش دون أن يكون لنا ولو كوخ، وليكن هذا شهادة بأننا إنما نبتغي وجه الله ﷻ بهذه الأعمال لا منافع دنيوية". فباع ملكه كله حتى منزله وتصدَّق على المدارس والطلبة". فهذا فدائي مِعطاء، لم يترك لورثته شيئًا، وعاش في منزل بالإيجار وفي غُريفة بمسكن الطلبة".

وما زال يتحدّث عن أشواقه للحاج كمال وعيناه تدمعان، ويراه في منامه كثيرا، حب وتقدير لصديق صدوق، ووفاء ليد العون في كلّ ما قُدّم لهذه الأمة من خدمة.




مراسم جنازة الحاج كمال أَريمَز

في ١١ يونيه/ حزيران ١٩٩٧م سافر إلى أمريكا للعلاج، فأجريت له عملية قسطرة للقلب بعد أسبوعين، وزادت الأزمات مرضه، ففي رؤيته للنزاع السياسيّ يؤكِّد أن أمن المجتمع وسلامته أوَّلًا، وكلُّ ما يحول دون هذا ويُعيق النهضة يغدو كانونًا للجحيم، تأزمت الأحداث فاستقالت

(٣١) الحاج كمال أَرِيمَزْ (١٩٢٦-١٩٩٧م): من أوائل رجال الأعمال الذين ناصروا الأستاذ فتح الله كولن عندما بدأ مشروع "الخِدمة"، لازمه حتى توفِّي، ووقف حياته وماله على هذا المشروع.

الحكومة في يونيه/حزيران، فعلَّق على هذه الأحداث في وسـائل الإعلام، وأشـار إلـى أن تركيا في طريقها لحلّ مشـكلاتها مـع الساسـة والشـعب، والتخلـص مـن حركات عمِلـت على تأخّرها وتقسـيمها وقتـل ما تتحلى به من تسامح؛ فأسهم بحكمته في تهدئة المجتمع يوم أن كانت الخلافات السياسية متأججة، فاسترعى أسلوبه الانتباه؛ فثمة من استغل الفوضى، ونثر سهام حقده وعدائه المكنون للأستاذ فتح الله، ورغم هذا لم يكن له همّ إلا مصلحة الوطن، فميزانه في الحياة "التضحية بكل شيء في سبيل الآخرين".

وواصـل حواره مع طبقات متفاوتة في العالم لا في تركيا فحسـب، فقابـل فـي سـبتمبر/أيلول كاردينال أوكونـور بأمريكا، أي إنَّـه يعي ويهتم بمشكلات يتوقَّـع أن يعاني منها العالـم لاحقًا.

أول حـوار في أمريـكا كان عام ١٩٩٧م مـع الصحفيـة التركية "نَوّال سَونْدِي"، نُشر هذا الحوار في جريدة "يَني يُوزْيِيل" بين ٢٠-٢٩ يوليه/ تموز، ثـم جُمـع في كتـاب "حوار نيويـورك مـع فتح الله كولـن"؛ ناقش الكتاب مشـكلات تركيـة عصرية، وموضوعـات مهمة عامّة لها صـدى في الرأي العامّ، تدور حول الاتحاد الأوروبي، وأمريكا، والعالم الإسلامي.

ومن الأحداث المهمة في هذا العام دعوة مؤسسة من أعظم المؤسسات شأنًا في روسيا "اتحاد الكتّاب الروس"[٣٢] للأستاذ فتح الله؛ وأهمية الدعوة فـي رأي تيمـور بولاتوف رئيس المؤسسـة "نحن على دراية بالمشـكلات المعاصرة في روسيا وتركيا؛ لذا فزيارة كولن ستفيدنا جدًّا بلا ريب".

وفـي ٣٠ سـبتمبر/أيلول ١٩٩٧م عـاد مـن أمريكا، فمنحته مؤسسـة (Türk Eğitim Sen)[٣٣] جائزة التعليم الخاص في عيد المعلِّم.

(٣٢) اتحاد الكتاب الروس: تأسّس عام ١٩٩١م، ليجتمع تحت سقفه مشاهير الكتاب الروس.

(٣٣) نقابة التربية والتعليم التركية

وفـي عـام ١٩٩٨م أجـرت معـه الصحافـة المحليـة والأجنبية عدة حوارات، والتقى ممثلي الأديان الأخرى تعبيرًا عن السماحة وقبول الآخر.

وشارك في عدَّة برامج وقابل فئات شتّى لتطوير الحوار بين الأديان، ففـي هـذا العـام زارَ البابـا جـان بُـول الثانـي، وكان لزيارته صـدى كبير في العالم عامَّة وفي تركيا خاصَّة، وأجرت معه وسـائل الإعلام الروسـية



أثناء زيارة بابا الفاتيكان في ١٩٩٨/٢/٩م

والأوروبيـة خاصـة الإيطاليـة حوارات في هذا الشـأن، وهنا كان للإعلام التركـيّ الهادف سـلوك حميد، بينمـا ذهب آخـرون كلّ مذهب في التهم الباطلـة أثنـاء تفسيرهم للحـدث، فبيَّـن الأسـتاذ فتـح الله فـي برنامـج علـى التلفـاز أنّـه ينسّـق للقاءاته مـع المسـؤولين، وأنه قد استشـار رئيس الوزراء بُولَنْد أَجَوِيتْ قبل لقاء البابا فوافقه في ذلك وأيّده وأشار إلى أنّها ستسهم في السلام العالمي.

ومُنِــح عــدة جوائــز مــن مؤسســات المجتمــع المدني علــى ريادته فــي أنشــطة مجتمعيــة عدة؛ وفــي هذا العــام ادَّعى على مــا أثارته مقالاتٌ وكتب من زوبعة تُهَم حوله، إلا أنها لم يتوقف نشرها.

واســتمر نشــاطه فــي اجتماعات تدعم الســلام الاجتماعــي والحوار بين الأديان والحضارات حتى عام ١٩٩٩م، ثم ســافر في ٢١ مارس/آذار إلى أمريكا للعلاج.

أمريكا:
عنوان الغربة الحزينة

في ١٨ يونيه/حزيران ١٩٩٩م بدأت وسائل الإعلام وأُولاها قناة ATV بنشر تسجيلات ملفقة عنه منتزعة من حوارات لا تشوبها شائبة، لتؤلّب المجتمع عليه، فباءت بالفشل، بعد أن بيّنَ للناس أنّها تستهدف التشكيك في نزاهة أنشطته؛ فثبتت براءته في كل الدعاوى التى رُفعت عليه؛ وغابت في زوبعة هذه العاصفة كل القيم التى طالما تغنى بها الإعلام مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان. وعلى هذا إنحصرت الدعاوى ضده حتى اليوم في اثنتين، حكمت محكمة الطوارئ عليه في إحداهما بالسجن، وفي ٣ أغسطس/آب بعد نحو سنة من "عاصفة يونيه/حزيران" اقترحت النيابة العامّة في أنقرة محكمة أمن الدولة (DGM) اعتقاله، وفي ٧ أغسطس/آب رُفض هذا الطلب لانعدام التُهم المنسوبة إليه، فتعنت وكيل النيابة وأصدر حكمًا باعتقاله في ١١ أغسطس/آب، فاعترض المحامون، فألغي القرار بعد نحو أسبوعين.

وفي هذا العام مُنِح جائزة الخدمة الرفيعة لـ"اتحاد كتّاب تركيا".

وفي ١٦ أكتوبر/تشرين الأول رُفعت عليه دعوى استمرت حتى عامي ٢٠٠٢-٢٠٠٣م، وبينما كان يفنِّد التهم، كان يبذل وسعه لتحقيق السلام العالمي، ويقاوم المرض لا سيما أن جسده يتأثر كثيرًا بما ألَمَّ به، وفي ٣١ مارس/آذار ٢٠٠٢م قضى ثلاثة أيام في المستشفى إثر إصابته بأزمة قلبية.

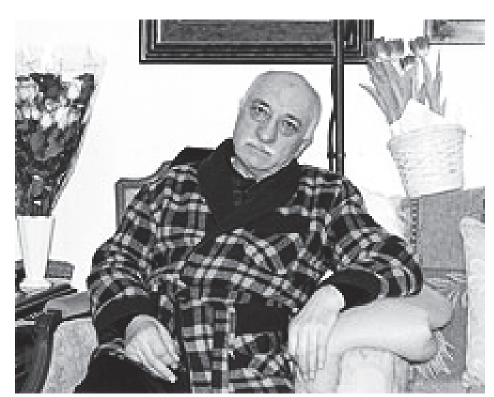
وأجرت معه نورية أَقْمان حوارًا مطوّلًا في عام ٢٠٠٤م نشرته جريدة "زمان" بدءًا من ٢٢ مارس/آذار، ثم طبع في كتاب، وأجرى محمد كُونْدَم



أثناء العلاج بأمريكا في ٢٠٠٢/٤/١م إثر أزمة قلبيّة

حوارًا مثله في نهاية العام، نشر في جريدة "مِلّيت" موزعًا على اثنين وعشرين يومًا منذ ٨ يناير/كانون الأول ٢٠٠٥م، ثمّ طُبِع في كتاب.

وبقي في أمريكا منذ عام ١٩٩٩م، أمّا شغفه وشوقه لتركيا الحبيبة فيُظهِرهما حديثه ومقالاته وحواراته الصحفيّة وشعره "الغربة الحزينة".



أثناء استراحته في المستشفى بأمريكا بعد العملية في ٢٠٠٤/١/٢٥م

بلغ حبّه لتركيا أنه احتفظ بملابس أتى بها معه دون أن يغسلها؛ سأله أحد الضيوف: "هذه الملابس كنت ترتديها وأنت قادم من تركيا، أليس كذلك؟!" فرد الأستاذ فتح الله: "بلى، أحتفظ بها منذ مجيئي، ولم أغسلها قطّ، بل لم أنفض ترابها بعد، فتركيا معي رَوحًا ورُوحًا



ورائحة". يواسي نفسه بتراب أُحضر من أنحاء تركيا كافَّة.

فحجرته في أمريكا هي بيت أسراره وشاهد على آلامه ومكابداته، يموت حسرةً عند حدوث أي فاجعة في العالم، فيتردد بين حجرات الممر والرَّدهة المقابلة لحجرته لعلَّه يعثر على خليل لقلبه الكليم.

لم يكن يأذن في مجلسه بحديث لا ينفع في دين ولا دنيا، لسانه لا يزال رطبًا بذكر الله وأحاديث الرسول ﷺ، فكلامه لا يخلو من الحديث عن الله ورسوله.



الأستاذ فتح الله وبيده تراب أُحضر من أنحاء تركيا

أهلّ رمضان، فأشار أطباء الغدد الصُمّ والسكري عليه بالإفطار، وكان يُعنَى بالعبادة أيّما عناية، فقال: "أنصح مَن حاله كحالي بترك الصيام، بل أفتيه بذلك، أمّا أنا فلا أستطيع"، وتابع صومه؛ وكان الصوم في المرض يُقعِده عن الحركة.

وإذا اردت أن تستكشـف حياته يقتضيك أن تعرف خصائصه، وإليك شيئًا منها من معلومات وتفسيرات عامَّة استخلصها السيد "**علي أُونال**":

- هو وأمثاله من الدعاة يستمدّون تجليات أسماء الله تعالى ويعكسونها إلـى النـاس أفضل من غيرهم؛ فأسـماء الله تتجلَّـى تجليًا متفاوتًـا في كلِّ عالـم مـن العوالـم، وفي هـذه الدنيا يتفـاوت تجليها فـي كلّ مجال على حِدة... الاجتماعي، والعلمي، والديني؛ فيمكن الإمعان في هذه الأسـماء بوصفها مرآة للحقيقة ذاتها بلون ونغمة وشكل يتنوع بتنوع الناظر... فكل الحـوادث والكائنـات ومنهـا الإنسـان إن هي إلا مظهر لتجلي أسـماء الله الحسنى...

- ملكاتـه العقليـة والروحيـة والبدنيـة جلية جـدًّا، فهو نشـيط فطرةً لا يخمـل، عزيـز، شـجاع مقـدام، منظَّـم منتظـم، مرهـف الحـس، مفعم بمشـاعر جياشـة، وَصُـولٌ للرحـم، رحيـم بالموجـودات كلهـا، يقـول: "لو رأيت ورقة سقطت من شجرة في الخريف لتألمتُ ألمي لو فُصِل ذراعي عـن جسـدي"، حتـى إنـه يقضـي نصف سـاعة في إخـراج نملة سـقطت فـي أرض الحمّـام، ويألـم لبكاء رضيـع وهو يصلي مسـتغرقًا في صلاته مـع الله ﷻ؛ وعندمـا اجتمـع حرمانه فـي الصغر وحبه وشـفقته ورحمته وصلتـه بأقاربـه، وهجراتـه، ومـا لقيـه والـده المحترم الظريـف من جفاء الأقران، وحوادث وفاة بليغة الأثر على طفولته بدءًا بأخويه وانتهاءً بجدّيه وأبويـه، حفـر ذلـك آلامًا فـي أعماقه زادتهـا جراح المسـلمين ومصائب الإنسـانية ألمًا؛ ورغم أنّ اختلال توازن هذه المؤثرات على الإنسـان يأتي عليه فينهار، نجد عناية الله ﷻ تتدارك الأستاذ فتح الله فتتسع لها شخصيته، والفضل في ذلك لنشأته.

- كانت يد القدر قد جذبته نحو العلوم الشرعية وتزكية النفس، فضلًا عن العلوم التجريبية والأدبيّة والإنسانيّة... فنمت ملكاته الفطرية التي وضعها الخالق لتوائِم العصر، عكف على طلب العلم فنضجت معرفته بالعلوم الحديثة من فيزياء وكيمياء، وأحياء وفلك، وتعرف على أمهات مصادر فلاسفة الشرق والغرب لا سيما الوجوديين أمثال كامو، وسارتر، وماركوس، فجعلت منه هذه المقومات رجلَ فكر وحركةٍ اشتَهر بـ"خُوجة أفندي" في الأوساط العامّة وخاصَّةً بين معارفه، امتاز بحبِّه للناس وسَعة معرفته، فهو غزير العلم، حكيم، منفعل لكن ببصيرة وفِراسة يزن بها الأمور، عفيف، رقيق، كريم، متسامح، تقيّ، ورِع، عطوف، رحيم، حليم، يحب كل ما حوله من إنسان وحيوان وجماد؛ شجاع، متفائل، مثاليّ، منظّم، متواضع؛ هكذا نشأ، وتربَّى، فتواضعه من خصائصه البارزة في شخصيته؛ سيرته كصورته بعيدة كلّ البعد عن التطلع للدنيا من زعامة وريادة ونحوهما؛ زهده في الدنيا وما يتعلق بها يتبلور في مصطلحات "التضحية" و"نسيان النفس" و"تصفير النفس" التي يستخدمها دائمًا. يقول: "لو استبدلْتَ بالدنيا أخرى كأنها الجنة، فاعتزِل تحت ظلّ شجرة، ودع عنك ما فعلته من أجل الإنسانية وقل في نفسك: "لست أنا من فعل هذه الأشياء، بل إنّها وُجِدَت بعون الله ثم بهمَّة المخلِصين"؛ لم يكن ليأذن بتقبيل يده، يقول "لا أرى أنّ نفسي جديرة بأي نوع من احترام أبدًا، فلا غاية لي سوى خدمة الناس بإخلاص"، فلم يكن يسعد بالتقديس والإفراط، بل يأمل أن يكون بين الناس فردًا من الناس، فكان يكره التكلّف، والتصنّع، والمماسَحة أي المزايدة، والتشدّق في الكلام، يسعده السلوك السوي الرفيع الحكيم، ويسعده أكثر أن يغدو ذلك سجيّة، ورغم ذلك لا يُغضِبه

سلوك فجّ فيه مَسحة من إخلاص، يكره أن يُنسب النجاح إليه أو أن يرفعه الناس أكثر من أنه عبد لله، يعرف الفضل لأهله من العلماء السابقين، أكثر ما يُثلج صدره أن يُعامَل بوصفه "واحدًا من الناس"، يقول أحيانًا: "لو جاز تغيير القَسِمات بعمليات التجميل لفعلت لئلا أُعْرَف"؛ يَرى أنّه "الأدنى في التشريف، والأعلى في التكليف"، وأنه "الثرى، وغيره الثريّا"، بل يرى أن نسبة الخدمة التي يحث عليها إلى شخصه "سوءُ أدب مع الله ﷻ، وبخسٌ لكثيرين بذلوا الكثير للخدمة، وخيانة للأمانة"؛ لا يرضى استغلال الدين أو الدولة في أيّ منفعة شخصية، بل يحض على ضرورة طلب رضا الله في ذلك لا متاع دنيوي ولا مقام، يقول: "لا تتطلع إلى جزاء على هذه الخدمات ولو أن تتشوف إلى الجنة أو الوِلاية، ولا تقل: لعل عملي هذا يرفعني إلى رتبة عبد القادر الجيلاني"؛ وكم كان يتألّم ويتأفف ويتخذ موقفًا أحيانًا لو استشعر في نفسه أو فيمن حوله طمعًا في منزلة أو صيت ولو يسيرًا؛ لذا كان يتناسَى عن عمد السنن الحسنة التي سنَّها، ويكأنّه لم يفعلها هو! ويفعل مثل ذلك بل يمحو من ذاكرته ما يصيبه من إيذاء وضرر وجفاء كما تُمسح ذاكرة الحاسوب، ولا يتفوه بكلمة في أحد، يقول: "أودّ أن أرحل إلى الآخرة وليس في قلبي غلّ لأحد، لا سيما المؤمنين".

- يستثمر شخصيته وحسّه المرهف في تبادل الأفكار والمشاعر لتقويم الأخطاء، ويُقدّر الموقف السديد مهما صغُر.

- بلغ به حياؤه أنه لا يتحدث غالبًا إذا لم يُسأَل، ولعلّ ذلك لأنّه يرى أن لا حاجة للحديث إلى من لا يعنيه ما يقول، فهو إذا أجاب أو تحدث، أو وعظ يكره أن يذهب أحد بكلامه مذهب التفاخر أو التجارة بالعلم، يوجِّه ويوضح إجابته فيجذب السامع، وعلى قدر وضوح السؤال يستفيد

السائل من الجواب، فيحل مشكلاتهم ويفعل كلامه فعلَه في حياتهم الروحية، لذا قد يجيب بشيء والسؤال في شيء آخر، إذ إنه يستهدف إفادة المخاطب ما استطاع، ويستطرد مرارًا في الإجابة ليرسل للمخاطب رسائل تنفعه، أو ليكون في جوابه تذكِرة وحلّ لمشكلة أخرى.

- يصوِّب الأخطاء ويقوِّم الأفعال بكلام عامّ مثل "ما بال أقوام؟" كما كان النبي ﷺ يفعله، فينال كلٌّ حظه من هذه التذكِرة، لا يواجِه أحدًا بخطئه إلا إذا عرف منه أنه يقبل المواجهة، أو أنّه لا يتأذى بأسلوبه اللطيف، فيجعل من هؤلاء "سَبُّورة"، ينصحهم كأنهم قد أخطؤوا، وهو يعني بكلامه آخرين، عسى أن يعتبر من يعنيه الأمر... فهو يلجأ إلى التعريض والكناية والتورية، فيكون للكلمة الواحدة أكثر من معنى؛ فمن لم يألف أسلوبه أو سمِعه أول مرة ربما يظن أنه يثني على فرد بينما هو ينبهه، والعكس بالعكس.

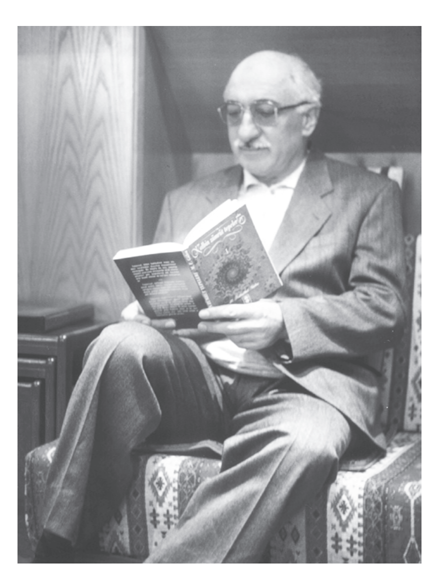
- أحيانًا يذكر نكتة طريفة تتصل بالموضوع بأدب واحترام، يقول قرينه وصديقه العريق السيد أردوغان تُوزُون: "قضيت معه ستة أشهر قبل ٣٠ عامًا في كوخ خشبي صغير بمكتب تعليم القرآن الكريم في كَسْتانه بَزاري بإزمير، فأعطاني فراشه وكان ينام عند الباب، كنا شَبَبَة إلا أنَّه لم يبدر منه سلوك فجّ قطّ".

يُصغِي إلى محدِّثه بصدقٍ وحُسْنِ طويّة؛ إن سمع كلمة أو حركة طريفة ابتسم وربما أثنى على صاحبها، وإن ضاق بمتكلّم يتكلّف، أو يرائي، أو يبغي الظهور أو المنفعة، قطّب جبينه.

- وفيّ لأصدقائه ومتاعه وما له صلة به ولمسكنٍ نزلَه ولو يومًا، يقول: "لو استروحت مع أصدقائي تحت شجرة في سَفْرة، ثم مررنا بها معًا بعد سنوات، فلم يتذكرها أحد منهم حزنتُ وأسِفت"، لهذا يرفض

تغيير زينة منزله، بل يبقيه كما كان، وله أسلوبه الفذ في تطييب نفس من كُسِر خاطره لأي سبب.

- كريم جوَاد، لا يدخّر سوى ثوبين، ويجود بما فضَل عن حاجته من قمصان وجوارب ومَعَاطف، يقول: "تربَّيت في بيت كرم وبلدة معطاء، لم أرَ بخيلًا قطّ، ولست بالذي يدخّر، لا أفهم أبدًا من ترتعد فرائصهم إذا قيل لهم أنفقوا، فالكرم صفة نبيلة قد تُدخِل العبدَ الجنة وإن كان فاسقًا، فإن كنتَ من طلاب الجنة فاسلك سبيلها".



ويعطي عطاءً جمًّا إذا رأى من شخص ما يرضيه ماديًّا أو معنويًّا أو رأى ما يعجبه من إنجاز متقن خالص لخدمة دين الله ﷻ؛ وكنت أرى لكل هدية معنى خاصًّا، يُهْدَى فيُهدِي، ويقابل الهدية بأخرى، وهكذا يفعل في المرسلة إليه رغم كثرتها.

- مثقف نَهِم، يقرأ يوميًّا ١٥٠-٢٠٠ صفحة، بدأ طفولته بقراءة السيرة النبوية ومناقب الصحابة الكرام، ثم عكف على الكتب العلمية والفكرية والفلسفيَّة؛ اطّلع على ثقافة الشرق، وقسِمات ثقافة الغرب، وكان قائدُه في الخدمة العسكرية قد أوصاه بذلك؛ قرأ لروّاد الثقافة الغربية أمثال شكسبير (Shakspeare)، بالزاك (Balzac)، فولتير (Voltaire)، روسو (Rousseau)، كانط

(Kant)، زولا (Zola)، جوتيه (Goethe)، كامو (Camus)، سارتر (Sartre)؛ وقرأ لروّاد الثقافة الشـرقية أمثال مولانا جلال الدين الرّومي، وسـعدي، وحافظ، والمـلا جامي، والفردوسـي، والأنـوري؛ وقرأ للأدباء أمثال برنارد روسِـل (Bernard Russel)، بوشكين (Pushkin)، تولستوي (Tolstoy)، وغيرهم؛ فتراه في حواره أو في كتاباته يشـير إلى أشـياء مردّها إلى منطق باكون (Bacon)، روسِـل (Russel)، والنظريـة الجدليـة مـن باسـكال (Pascal) حتـى هيجـل (Hegel)؛ وقرأ في الأدب التركي لعمالقة الأدب الكلاسيكي أمثال فضولي، وباقـي، ونفعي، والشـيخ غالب، وليلـى هانم، ولعظماء الكتّاب والشـعراء أمثال نامق كمال، وشِناسي، وتوفيق فكرت، ويحيى كمال، ونجيب فاضل، ومحمـد عاكف، وسَـزائي قَراقُـوج؛ ولكن لعنايته بالعلوم الإسـلامية لأنها الأصل؛ قصَر أحاديثه عليها، فتحدّث في تفسير القرآن، وبلاغته، وأسراره، وحلّل الأحاديث النبوية، والحياة الإسلامية.

إنـه لـم يتـرك التدريـس في حياتـه إلا إذا اضطُـرّ، لكنه مـن تواضعه لا يسـميه تدريسًـا، ولا يقـول "إنـي أدرّس"، بـل يقـول: "نطالـع الكتب مـع الأصدقـاء". "طالـع" هـو وطلابـه -الذيـن لا يسـميهم "طلابي" بل يسـميهم "أصدقائـي"- كثيـرًا مـن أهم كتب التفسـير، والحديـث، والفقه وأصولـه، والتصوف، والبلاغة، والمنطق، والصرف والنحو إلى غير ذلك من كتب العلوم الشـرعية، فمثلًا طالعوا في شـهر رمضان عشرة مجلدات مـن "كنز العمال" للمتقي الهندي من أصل سـتة عشـر مجلـدًا، وفيه أكثر من ستة واربعين ألف حديثٍ، وأكملوا ما بقي بعد شهر رمضان.

- ذوّاقة أنيق، حسـن المظهر؛ كل ما يرتديه يكون لائقًا عليه، لم يكن وهو طالب يلبس بنطالًا دون كيّ، فإن لم يجد مكواة، وضعه تحت فراشـه

ونام عليه، لا يرى علاقة بين ترك الأناقة والورع، لا ترى في وجهه ما تعافه العين، مِشيته متميزة، يمشي شامخ الرأس، واسع الخُطا؛ كان قبل مرض القلب يصعد الدَرج مثنى وثلاث، يقول: لم أكن أتحمل صعوده درجة درجة قبل أن يشتد بي المرض، فهو مفعم بالحيوية والنشاط خاصة عند حلّ المشكلات.

- يكفيه قليل الطعام، ولما ألزمه طبيب السكّر بتناول وجبة أخرى، لم يكن يأكل سوى لقيمات، كان يتناول أصنافًا من الأدوية منذ شبابه كما ذكَر هو ومعارفه، دعا في شبابه فقال: "اللهم خذ مني وأنزِل بي ما يشغل جسدي عن حمّى الشهوات في ريعان الشباب"، وحذّرَه عالم فاضل من هذا الدعاء، لكن كأنّه رأى دواءَه في دائه؛ وربما لم يبق مرض إلا زاره فترة ثم رحل ليأتي غيره؛ فقاسى في شبابه قرابة خمسة عشر عامًا من أمراض منهكة في جسده كله حتى وجهه ويديه ورجليه؛ وأصيب في الجيش بتضخم في الكبد أفرزه مرض الصفراء، وأصيب بعسر الهضم الذي عانى منه طويلًا، ثم أصيبت قدمه اليمنى بآلام مبرِّحة لا تحتمَل، يقول: "لم أكن أطيق الوقوف على قدمَيّ، ولا الجلوس أيضًا، فإذا توضأت ساعدني أصدقائي، وفي إزمير جاؤوني بطبيب عظام جِلْف ضقتُ به، كان يفحصني بقسوة حتى إنه آلمني وضايقني، وقال: حالتك تستدعي عملية ضروريّة، فقلت: "سيغنيني الله عنك، وإذا مرضت فهو يشفين"؛ فغضب وخرج؛ وذهبوا بي ذات مرّة إلى المستشفى، فلما فحصني الأطباء سمعتهم يتهامسون: "لا بد من قطع إحدى قدميه"، أخذتني رعشة، ثم فعلْتُ مثل فعل أبيكتاتوس[٣٤] أي حدّثت نفسي قائلًا: "ما زلتَ تنعم

(٣٤) أبيكتاتوس (Epiktetos) أحد فلاسفة الرومان.

يـا فتـح الله بقدميـن حتـى هذا اليـوم، أي ربّ سـأعبدك بعدئـذ على قدم واحـدة، فلـك الحمد على كل حـال!"؛ ولما عدتُ من المستشـفى بدأت أمسح مواضـع الألـم بزيت الزيتون، وأصلي عند المسـح على رسول الله ﷺ، مـع الالتزام بالوصفة الطبيّة، فشفاني الله ﷻ".

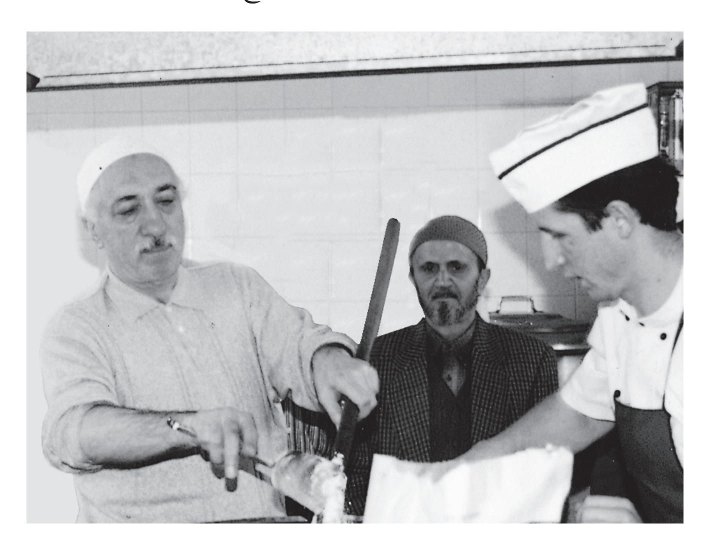
واشـتدّ به مرض السـكر إثر انقلاب ١٢ سبتمبر/أيلول، وكذا القلب، ثم تضاعف المرض، فتورمت مفاصل أصابـع يديه خاصةً اليمنى، فقاسى من استعمال يديه؛ إذ لـم يكن يستطيـع أن ينشر ويضمّ أصابعه جيِّدًا.

وكان يتصبب عرقًا في مرضه المزمن إذا ما فعل شـيئًا ما كأن يصلّي رُكيعـات ويرتِّـب سـريره، فإن أصيـب بالـزُّكام زاد الطِّين بَلّة، فـكان يغيّر ملابسـه مـرارًا في الليل، ولا يسـتطيـع أن ينام نصف سـاعة من سـاعتين ينامهما عادةً، وبينما يغرق أعلاه بالعرق، يرتعد ما سـواه من البرد؛ يقول: "لم تدفأ قدماي قطّ رغم الغطاء والجورب والمدفأة".

- كان يخدم نفسه بنفسه، في الطهي والنظافة والضيافة، ولو في أيام مرضه، ومهارتُه في الطهي نتاج مسـاعدتِه لأمِّه، وعزلته وهو مدرس يافـع في كستانه بزاري بأزمير، يقول: كنت أصنـع من البطاطس عشرة أنواع.

- لا ينام من الليل إلا قليلًا خاصّة أيام عزلته، تشغله عن النوم غايته التـي نـذر لها حياتـه، وهمـوم الأمـة والملَّة، ومشـكلات بعـض الناس، وتجاوزات حدود الشرع، وأمراضه المزمنة، فتحمُّله وصبرُه على هذا كلِّه محيِّرٌ للغاية". (انتهى كلام السيد علي أُونال)

تحلى منذ طفولته بخصائص تميزه، أعلاها الأخلاق الرفيعة، والذكاء الحادّ، وقوة الذاكرة، والشـجاعة، والوفاء، والقلب المفعم بالحبّ؛ شديد



يعلّم الطبّاخ صُنع حلوى من الحلويات الخاصة ببلدته أرضروم

المحاسـبة لنفسـه، فلو حدثت مشكلة في العالم عدّ هذا من ذنوبه؛ واسع الصدر، شـغله الشـاغل هموم الناس، يقول: "إذا شـيك أحد بشـوكة كان عليّ أن أقاسمَه الألم"؛ فلو مرّ بشجرة فاستروح عندها سيمُر بها في طريق عودتـه وفـاءً لهـا، لا يلقي ورقة خطّ فيها قلمه وفاء لهـا، يقول في الوفاء: "هو وردةُ بستان الصداقة"؛ لا يقطِّب أبدًا في وجه أحد ولو غدر به مرارًا.

شخصيته الفعّالة وحياته القائمة على الكتاب والسنة جعلَت منه غريبًا في عصره، فيودّ لو أن هموم الإنسانية جمعاء حُمِلت على عاتقه.

هـذه صـور مـن حياة الأسـتاذ محمـد فتـح الله كولن، صور تكشـف عـن ريـادة شـخصيته في هذا العصـر، ولَأَن تفقهَ أسـرار رسـالته أولى لك من معرفة سيرته. والآن نقدم لكم ما كتبه الأستاذ الدكتور "**إبراهيم البَيُّومي غانم**" بشكل إجمالي عن حياته الفكرية والنشاطية:

"فتح الله كولن أحد أشهر علماء الإسلام المصلحين ودعاته المعاصرين على مستوى العالم. احتلّ المرتبة الأولى في قائمة أهم مائة عالم في الاستطلاع الذي أجرته سنة ٢٠٠٨ مجلة "فورين بوليسي" -وهي مجلة أكاديمية أمريكية ذائعة الصيت- ومجلة "بروسبيكت" البريطانية المشهورة. وقد أنشأت له عدة جامعات في الولايات المتحدة، وإندونيسيا، وأستراليا، أقسامًا خاصة باسمه (كرسي أكاديمي)، ومراكز علمية متخصصة، وانعقدتْ مؤتمرات وندوات دولية عديدة في جامعات عالمية لدراسة أطروحاته ونظرياته الدعوية والفلسفية والإصلاحية والتربوية.

بدأ الأستاذ فتح الله كولن نشاطه الدعوي والتربوي في عدة مدن بغرب تركيا بداية الستّينيات من القرن المنصرم، وواظب على أداء رسالته بصبر وجدية منذ ذلك الحين إلى اليوم. حفظ القرآن الكريم وتعلّم العربية والفارسية على يد والده "رامز أفندي" في سنّ مبكرة، وتلقى عن علماء المنطقة التي نشأ فيها علوم الفقه والتفسير والحديث والنحو والبلاغة والأصول ومقارنة الأديان. وقرأ في مختلف مجالات العلم والمعرفة فيما بعد، ودرس أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وأمعن في قراءة مُنَظِّري الإصلاح في القرون الأخيرة، وتابع التيارات الإصلاحية التي ظهرت في شتى البلدان الإسلامية، واستوعب النظريات الغربية الفلسفية والاجتماعية والعلمية والسياسية والأدبية الحديثة.

أدرك فتح الله كولن في وقت مبكر أن المجتمع التركي، ومجتمعات العالم الإسلامي عامة تعاني من ثلاث علل كبرى هي: الجهل، والفقر،

والتفرق. فنذر نفسه للدعوة إلى العلم والعمل لتفعيل مشروع تربوي متكامل، وحثِّ الأثرياء على التضامن الاجتماعي ومساعدة الفقراء والاستثمار في مجالي التربية والتعليم، واتخاذِ التواصل والحوار البنّاء سبيلًا لحل الخلافات المستشرية، وتأسيس ثقافة التعايش، ونشر السلام على كل المستويات المحلية والإقليمية والعالمية؛ وقد انتشرت أفكاره وأحلامه في كل الطبقات الاجتماعية، وكثر محبّوه في مختلف أنحاء العالم. وقد أكد دوما أن مكمن المشكلة هو الإنسان، وما لم نُعِد صياغة الإنسان صياغة صالحة فلن يتأتى لنا حل مشكلاتنا المستعصية، ومن ثم سعى طيلة حياته على أن يُخرج نموذج الإنسان المسلم المثالي المتمسك بجذوره الروحية، المنفتح على ثقافات العالم ومتطلبات العصر، الموفق بين العقل والقلب والسلوك، الواقف نفسه لخدمة الإنسانية كسْبًا لمرضاة الله تعالى، إيمانًا منه بأن هذه هي رسالة الإسلام الحقيقية والسبيل التي سار عليها كافة الأنبياء ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. لذا تميزت كافة المشاريع التي حث على إنجازها ببعدها الإنساني الشامل حيث حرصت على خدمة الإنسان من حيث هو إنسان، دون تمييز بين عرق أو لغة أو دين أو ثقافة.

ومن ثم فإلى جانب أعمال الإغاثة الإنسانية للمنكوبين وضحايا الحروب، فقد غطّت خدمات مؤسسات محبّيه القارات كلها، ولا سيما في مجال التربية والتعليم، حيث تميزت المدارس بالجودة العالية والتناغم بين معطيات العلوم والقيم الأخلاقية، مما جعلها تتبوأ المراتب الأولى وتحقق النجاح الباهر أينما فتحت في العالم، ويتنافس عليها النخبة والعامة ليسجلوا فيها أبناءهم.

فهناك المؤسسات التعليمية (حوالي أكثر من ١٠٠٠ مدرسة خاصة، وعدد من الجامعات، ومئات المدن الجامعية، وبيوت الطلبة)، وهناك المؤسسات الإعلامية (صحف ـ ومجلات ـ ومحطات إذاعية ـ وفضائيات تبث بعدة لغات، وهي قنوات: ثقافية ـ إخبارية ـ اجتماعية ـ للأطفال)، إلى جانب مؤسسات العلاج والمشافي الصحّية، وعدد من أكبر دور النشر في تركيا وخارجها، وجمعيات ومنتديات لرجال الأعمال والتجار. وهناك عشرات المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت، تبثّ بـ ٢٢ لغة، وتنشر مقالاته ومؤلفاته وأخباره (ar.fgulen.com)، (tr.fgulen.com).

وفي خطبه ومواعظه كان يخاطب عقول الناس وقلوبهم، ويذكّرهم بالماضي المجيد، والحاضر البئيس، ويرسم لهم صور المستقبل المشرق، ويبعث فيهم الأمل، ويغرس في قلوبهم الإيمان بالله، ويحبّب إليهم الرسول الأعظم ﷺ وصحبه الكرام، ويحثّهم على التأسّي به ﷺ وصحابته الأجلّاء، ويدعوهم إلى التّفاني والإيثار والعمل المجتمعي التربوي الحكيم بجدية وإخلاص وتفان وإتقان، ويلهب فيهم أنفاس العاطفة الرشيدة، ويستحثّ فيهم روح العمل والإنجاز لكي يقدموا -كمسلمين- إضافات نوعية لأمّتهم والحضارة الإنسانية كافة. كل ذلك وسط دموع ساخنة يذرفها في كل دروسه ومواعظه، فيَبكي ويُبكي... فكان الواعظَ البكّاء، وكان محبوه من البكّائين كذلك، وكان البكاء ماء الحياة الذي يجري سلسبيلا في كل الأعمال والخدمات.

لقد جاب فتح الله كولن كافة أراضي تركيا، متنقلا بين مدنها وقراها، والتقى الناس على كافة المستويات، ولم يفتأ يتحدث عن هموم الأمة والإنسانية، ويطرح لها حلولا، وينشر ثقافة إنتاج الحلّ بدلًا من النقد

والتشكي، ويحث أصحاب الحمية والهمة على الاضطلاع بمسؤولياتهم الضخمة التي تنتظرهم، ويدعو إلى العمل الإيجابي دون كلل أو ملل، والإيمانِ العميق الرباني، والخدمةِ الهادئة الحكيمة، ونِشْدانِ معية رب العباد من خلال التواجد الفعال وسط العباد، والحركية الدؤوبة في كل مجالات الحياة، والصبرِ والمصابرة على بناء مشاريع طويلة النَّفَس، وتجنّبِ استنفاد الطاقات في نقاش وصراع وصدام لا طائل من ورائه، والسعي الحثيث لامتلاك القلوب دون تمييز، والحرص على زرع الإيمان في النفوس ليفعل الإيمان فعله الإصلاحي الإنشائي العميق. وقد أكد دائمًا أن مسؤولية المسلم مسؤولية كونية، وأن صلاح العالم بصلاح الفرد، وأن التغيير يبدأ من الإنسان، وأنك إذا نجحتَ في تغيير الإنسان فقد غيرتَ الدنيا كلها، وإذا استطعت أن تصنع الإنسان فقد صنعت الحياة والحضارة برمتها وحققت العمران.

فانطلاقًا من هذا الإطار الفكري والعملي، ألقى الأستاذ فتح الله كولن آلاف المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية والفلسفية والفكرية في المنتديات العامة، وعقد آلافًا من اللقاءات وحلقات الدرس الخاصة التي أجاب فيها على الأسئلة الحائرة التي كانت تجول في أذهان الناس، وتؤرق الشباب خاصة، ولا يعرفون لها أي جواب؛ وكانت حيرتهم تلقي بهم في مهالك الشبهة والإلحاد؛ ومنها الأسئلة المتعلقة بنظرية دَارْوِين، وحقيقة الروح، والقضاء والقدر... إلخ. وكانت أجوبته على مثل هذه الأسئلة بلسمًا شافيًا لعقول الشباب وقلوبهم وجمهور الناس، مما جعلهم يحبونه ويلتفّون حوله ويطلبون إرشاداته؛ فكان يستثمر هذه المحبة وذلك الإقبال في حثّ أصحاب الحمية على إنشاء مؤسسات تربوية تعليمية...

إذ كان يرى أن السبيل الأوحد والأنجع لصناعة إنساننا من جديد، وإصلاح مجتمعاتنا، وتأهيلها للقيام بدورها التاريخي المنشود على مستوى العالم، إنما يمر عبر تكثيف الجهود في مجال التربية والتعليم، أي مجال صناعة الرجال؛ وإذا استطعنا أن نكوّن نماذجنا البشرية والمؤسساتية الحية على أرض الواقع لتراها العيون وتعايشها الأرواح، فسوف تنبعث الثقة في النفوس، والاطمئنان في القلوب، والراحة في العقول. وكان يقول باكيًا: "إن العالم في أمسّ الحاجة إلى الإسلام اليوم، والإسلام في أمس الحاجة إلى من يمثّله بحقّ"، مضيفًا "الآذان شبعتْ، والعيون جائعة" في إشارة إلى أن الوقت وقت العمل. كل هذه الأفكار، والعمل الدؤوب المخلص، جعل الأستاذ فتح الله كولن يفوز بقلوب كثيرين من أبناء تركيا، ويحتلّ مكانة الثقة لدى المجتمع التركي بكل طبقاته.

لقد أتاحت للأستاذ فتح الله كولن ثقافته الواسعة، وتبحره في علوم الدين وعلوم العصر، أن يخاطب مختلف الشرائح الاجتماعية في تركيا، بما في ذلك المثقفون وأصحاب التيارات الفكرية الحداثية والليبرالية والقومية؛ وقد استجاب كثيرون منهم لندائه، ودخلوا في حوارات ومراجعات من أجل تصويب آرائهم وتصحيح مساراتهم السابقة. وفي هذا المضمار حثّ في بداية التسعينات على إنشاء مؤسسة عالمية لغرض التحاور والتفاهم والاحترام المتبادل بين أصحاب تلك التيارات والأفكار المتباينة، لتقريب وجهات النظر، وتجنيب البلاد شر التفرق والعنف والفتنة؛ فتحقق هذا المشروع بالفعل، وانبثقت عنه منتديات للحوار البيني والعالمي، وانعقدت مؤتمرات عالمية مهمة، مما شكل منعطفًا تاريخيًّا في تأسيس السلام والتعايش بين الأطياف المتناقضة،

في زمن عملت فيه بعض الأوساط على تفتيت المجتمع التركي استغلالًا للخلافات الفكرية والطائفية والثقافية والدينية.

اهتم الأستاذ فتح الله كولن بفكرة الحوار والتواصل والتفاهم بين التيارات الفكرية المختلفة على المستوى المحلي داخل تركيا، وعلى المستوى الإقليمي والدولي بين أتباع الديانات وأبناء الحضارات والثقافات المتعددة، ودعا إلى نهج التعارف والاحترام المتبادل والتسامح والتعايش، ونبذ التعصب وإدانة العنف. وعُرف في تركيا وفي العالم بـ"داعية الحوار والتسامح والتوافق"، ولقيت دعوته هذه صدًى إيجابيًّا واسعًا في تركيا وخارجها، ووصلت إلى ذروتها في الاجتماع الذي تم عقده في الفاتيكان مع البابا.

يرى فتح الله كولن أن العالم أصبح -بعد تقدم وسائل الاتصالات- قرية صغيرة؛ ولهذا فإن أي حركة قائمة على الخصومة والعِداء لن تؤدي إلى أي نتيجة إيجابية، وأنه يجب الانفتاح على الإنسانية بأسرها، وإبلاغ العالم كله بأن الإسلام دِين الرحمة، ويدعو إلى الأخوّة بين بني البشر، وأن المسلم الحقيقى لا يمكن أن يكون إرهابيًا وأن الإرهابي لا يمكن أن يكون مسلمًا. وقد ذكر مرارًا وتكرارًا أن هناك مجالات واسعة للتعاون والتعاضد بين المسلمين وبين أبناء الأديان والثقافات الأخرى لتأسيس سلام واستقرار على مستوى العالم.

للأستاذ فتح الله كولن أكثر من خمسة وستين كتابًا تناول فيها القضايا الكبرى في الفكر الإسلامي ومشكلات العصر. بعض كتبه مترجم من التركية إلى أكثر من خمسين لغة أخرى منها: العربية والإنجليزية والفرنسية

والألمانيـة والروسـية والإسـبانية وغيرهـا مـن اللغات الحيـة؛ وله آلاف الخطـب والمحاضرات والمواعظ المسـجّلة، إضافة إلى مئات المقالات المنشورة في المجلات والصحف داخل تركيا وخارجها، وله ديوان شعر بعنوان "ريشة العزف المكسورة".

قائمة مؤلفات الأستاذ فتح الله كولن[٣٥]

العنوان باللغة التركية	العنوان مترجمًا إلى العربية (لا يعني أن الكتاب ترجم)	ملاحظات (الأجزاء، المترجمة...)
Sonsuz Nur.. İnsanlığın İftihar Tablosu	سلسلة النور الخالد.. محمد... مفخرة الإنسانية	(سبعة أجزاء، في سيرة النبي ﷺ) مترجم إلى العربية
	الجزء الأول: النبي المرتقب	مترجم إلى العربية
	الجزء الثاني: من صفات الأنبياء	مترجم إلى العربية
	الجزء الثالث: عظمة الفطنة	مترجم إلى العربية
	الجزء الرابع: فن التربية وحل المعضلات	مترجم إلى العربية
	الجزء الخامس: الرسول ﷺ قائدًا	مترجم إلى العربية
	الجزء السادس: العصمة النبوية	مترجم إلى العربية
	الجزء السابع: السنبة النبوية	مترجم إلى العربية
Çağ ve Nesil Serisi	**سلسلة العصر والجيل**	(جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية في مجلة سيزنتي من العام ١٩٧٩م حتى اليوم) تسعة أجزاء
1-Çağ ve Nesil	الجزء الأول: العصر والجيل	
2-Buhranlar Anaforunda İnsan	الجزء الثاني: الإنسان في دوّامة الأزمات	
3-Yitirilmiş Cennete Doğru	الجزء الثالث: نحو الجنة المفقودة	
4-Zamanın Altın Dilimi	الجزء الرابع: شريحة الزمن الذهبية	
5-Günler Baharı Soluklarken	الجزء الخامس: أيام تتنفّس أنسامًا ربيعية	
6-Yeşeren Düşünceler	الجزء السادس: أفكار في طور الاخضرار	
7-Işığın Göründüğü Ufuk	الجزء السابع: أفق يلوح منه النور	
8-Örnekleri Kendin Bir Hrkt.	الجزء الثامن: حركة نماذجها من ذاتها	

(٣٥) العناوين التي ترجمت إلى اللغة العربية، نبَّهت إليها القائمة في الخانة الثالثة، بعبارة "مترجم إلى العربية"؛ وغيرها لم يترجم إلى العربية.

9-Sükutun Çığlıkları	الجزء التاسع: دويّ الصمت	
Ruhumuzun Heykelini Dikerken Serisi	**سلسلة ونحن نقيم صرح الروح**	(جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية لمجلة يني أميد) مترجم إلى العربية جزءان
1-Ruhumuzun Heykelini Dikerken	الجزء الأول: ونحن نقيم صرح الروح	مترجم إلى العربية
2-Kendi Dünyamıza Doğru	الجزء الثاني: ونحن نبني حضارتنا	مترجم إلى العربية
Kalbin Zümrüt Tepeleri Serisi	**سلسلة التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح**	(جمهرة مقالات الأستاذ حول تزكية الأنفس) أربعة أجزاء،
	الجزء الأول: التلال الزمردية	مترجم إلى العربية
	الجزء الثاني: التلال الزمردية	مترجم إلى العربية
	الجزء الثالث: التلال الزمردية	
	الجزء الرابع: التلال الزمردية	
Asrın Getirdiği Tereddütler serisi	**سلسلة أسئلة العصر المحيِّرة**	(نخبة مختارة من مجموعة من التساؤلات التي وجهت إلى الأستاذ في المساجد) مفرّغ من الأشرطة، أربعة أجزاء
1-A.G. Tereddütler-1	الجزء الأول: أسئلة العصر المحيرة	مترجم إلى العربية
2-A.G. Tereddütler-2	الجزء الثاني: أسئلة العصر المحيرة	
3-A.G. Tereddütler-3	الجزء الثالث: أسئلة العصر المحيرة	
4-A.G. Tereddütler-4	الجزء الرابع: أسئلة العصر المحيرة	
Prizma Serisi	**سلسلة المنشور الضوئي**	(دروس الأستاذ المسائية) مفرغة من الأشرطة، ثمانية أجزاء
1-Prizma-1	الجزء الأول: المنشور الضوئي	
2-Prizma-2	الجزء الثاني: المنشور الضوئي	
3-Prizma-3	الجزء الثالث: المنشور الضوئي	
4-Prizma-4	الجزء الرابع: المنشور الضوئي	
5-Kendi İklimimizi	الجزء الخامس: مناخُنا نحن	
6-Yol Mülahazaları	الجزء السادس: ملاحظات على الدرب	
7-Zihin Harmanı	الجزء السابع: بيدر الفكر	

8-Çizgimizi Hecelerken	الجزء الثامن: في تهجي خط سيرنا	
9-Kendi Ruhumuzu Ararken	الجزء التاسع: ونحن نبحث عن روحنا الذاتية	
Fasıldan Fasıla Serisi	**سلسلة الفصول**	(دروس الأستاذ المسائية) مفرغة من الأشرطة، خمسة أجزاء
1-Fasıldan Fasıla-1	الجزء الأول: الفصول	
2-Fasıldan Fasıla-2	الجزء الثاني: الفصول	
3-Fasıldan Fasıla-3	الجزء الثالث: الفصول	
4-Fasıldan Fasıla-4	الجزء الرابع: الفصول	
5-Fikir Atlası	الجزء الخامس: أطلس الفكر	
Kırık Testi Serisi	**سلسلة الجرّة المشروخة**	(دروس الأستاذ المسائية في الولايات المتحدة الأمريكية) مفرغة من الأشرطة، عشرة أجزاء
1-Kırık Testi	الجزء الأول: الجرة المشروخة	
2-Sohbet-i Canan	الجزء الثاني: صحبة الحبيب	
3-Gurbet Ufukları	الجزء الثالث: آفاق الغربة	
4-Ümit Burcu	الجزء الرابع: برج الأمل	
5-İkindi Yağmurları	الجزء الخامس: غيث الأصيل	
6-Diriliş Çağrısı	الجزء السادس: نداء البعث	
7-Ölümsüzlük İksiri	الجزء السابع: إكسير الخلود	
8-Vuslat Muştusu	الجزء الثامن: بشرى الوصال	
9-Kalb İbresi	الجزء التاسع: بوصلة القلب	
10-Cemre Beklentisi	الجزء العاشر: في ارتقاب الجمرة	
11-Yaşatma İdeali	الجزء الحادي عشر: رسالة الإحياء	
12-Yenilenme Cehdi	الجزء الثاني عشر: السعي إلى تجديد النفس	
Tekellüm Arapça Dil Öğretim Seti	**سلسلة تعليم العربية بطريقة حديثة**	(خلاصة جهود الأستاذ في تعليم العربية لطلابه) صدرت في منتصف السبعينات، خمسة أجزاء
	الجزء الأول: تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الثاني: تعليم العربية بطريقة حديثة	

	الجزء الثالث: تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الرابع: تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الخامس: تعليم العربية بطريقة حديثة	
el-Kulubu'd-Dâria (Yakaran Gönüller)	القلوب الضارعة	(مجموعة الأوراد والأدعية، النص الأصلي باللغة العربية)
Dua Mecmuası	مجموعة الأدعية المأثورة	(مجموعة الأدعية المأثورة المنتخبة من كتب الصحاح)
İrşad Ekseni	طرق الإرشاد في الفكر والحياة	(مترجم إلى العربية)
Kader	القدر في ضوء الكتاب والسنة	(مترجم إلى العربية)
Cihad	روح الجهاد وحقيقته في الإسلام	(مترجم إلى العربية)
Kur'an'dan İdrake Yansıyanlar	أضواء قرآنية في سماء الوجدان	(نظرة بيانية تحليلية في بعض النصوص القرآنية) (مترجم إلى العربية)
Ölçü veya Yoldaki Işıklar	الموازين أو أضواء على الطريق	(حكم ربّانية مستقاة من الكتاب والسنة، وممزوجة بخلاصة التجارب) (مترجم إلى العربية)
Yaratılış Gerçeği ve Evrim	حقيقة الخلق ونظرية التطور	(مترجم إلى العربية)
Beyan	البيان	(جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية في مجلة يغمور (الغيث) الأدبية)
Fatiha Üzerine Mülahazalar	تأملات حول سورة الفاتحة	
İnancın Gölgesinde	في ظلال الإيمان	
Kırık Mızrap	ريشة العزف المكسورة	(ديوان شعري جمع فيه جملة ما كتبه الأستاذ من قصائد وأشعار)
Ölüm Ötesi Hayat	الحياة بعد الموت	
Varlığın Metafizik Boyutu	البُعد الميتافيزيقي للوجود	
Çekirdekten Çınara	من النواة إلى الشجرة	(كتاب في تربية الأولاد في الإسلام)

Renkler Kuşağı	ألوان وظلال في مرايا الوجدان	(تأملات لتجليات أسماء الله وصفاته في مظاهر الكون والوجود) **مترجم إلى العربية**
Kur'an'ın Altın İkliminde	في عالم القرآن الذهبي	
Enginliğiyle Bizim Dünyamız	عالمنا الفسيح	(نظرة آفاقية في البعد الاقتصادي في الإسلام وحله لجميع مشاكلنا الآنية)
Huzmeler ve İktibaslar	حزم وقبسات	
Röportajlar	**مقابلات صحفية**	
1-Küçük Dünyam	دنياي الصغيرة	
2-Ufuk Turu – Eyüp Can	جولة في الآفاق	
3-Gurbette F.G. - Nuriye Akman	مع فتح الله كولن في ديار الغربة	
4-Global Hoşgörü ve Newyork Sohbeti – Nevval Sevindi	التسامح العالَمي وحوار نيويورك مع الأستاذ فتح الله كولن	
5-F. Gülen'le 11 Gün –M.Gündem	أحد عشر يومًا مع فتح الله كولن	

قالوا عنه

"تجولتُ اليوم في ثانوية طَشقَنْد التركية في أوزبكستان، وأعجبتُ بها غاية الإعجاب، فلا يسعني إلّا أن أقدم جزيل الشكر لكل مَن ساهم وحقق هذه الأمنية، إذ ستقوم هذه المؤسسات بتنشئة جيل يربط ربطًا وثيقًا بين البلدين، أوزبكستان وتركيا. ليرضَ الله عنهم جميعًا".

طُورغُوت أُوزال (رئيس الجمهورية الراحل/تركيا)

"إننا نمتلئ ثقة واعتزازًا بالمدارس التركمانية التركية التي يُمارَس فيها التدريس وفق الأسس العالمية للتعليم. وإن تعلّم الطلاب اللغات التركمانية والتركية والإنكليزية والروسية بأفضل وجه، بجانب تعلمهم العلوم الحديثة بأنواعها المختلفة، يحوز أهمية جليلة لمستقبل بلادنا. وستُكتب خدماتكم الجليلة التي تقدمونها في تاريخ أمتنا التركمانية المستقلة ونهضتها بحروف لا تُمحى. أقول لكم من صميم قلبي: ليرضَ الله عنكم".

سَابَار مُرادْ تُركْمان باشي (رئيس الدولة الراحل/تركمنستان)

"الأمر الذى لا ريب فيه هو ضرورة التجديد، بحثًا عن الإجابة على أسئلة من قبيل "من نحن؟ ومن الآخر؟ وكيف نحاوره ونصمد أمامه؟" ولعل الباحث في حركة الأستاذ فتح الله كولن التركية، يجد المفتاح الضائع لهذه القضية المغلقة التي قد ضلَّ مفتاحها".

أ.د. أحمد الطيب (شيخ الأزهر/مصر)

"لأن العقل -في حضارتنا الإسلامية- هو نور أودعه الله في القلب... ولأن العلامة الأستاذ فتح الله كولن هو ثمرة طيبة من ثمرات هذه الحضارة، فلقد جمع بين حكمة العقل وبصيرة القلب...

ولأن القرآن الكريم هو الذي صاغ منهاجه في الفكر والحياة، فلقد صار كلمة طيبة، أصلها ثابت، وفروعها ممتدة، تؤتي أكلها كل حين بإذن الله.

ولأن الوحي القرآني قد قرن دائمًا بين الإيمان والعمل، فإن كلمات هذا العالم الربّاني قد تجسّدت -به وبإخوانه الكرام- أبنية شاهقة، وحياة خصبة، تزدهر بها كثير من بقاع هذا الكوكب الذي نعيش فيه".

أ.د. محمد عمارة (المفكر والكاتب الإسلامي/مصر)

"ما يحدث عادة هو أن الفكرة تتحول إلى شخص، وعندما يُضرَب الشخصُ تسقط الفكرة وينتهي الأمر. على عكس ذلك، ما حدث عند الأستاذ فتح الله كولن هو أن الشخص تحول إلى فكرة.. فحركة.. فواقع.. فحركة مؤسسية في مختلف نواحي الحياة تقدم تصورًا صحيحًا للإسلام بجوانبه المتعددة العملية، وليس التجريدية".

د. عبد الحميد مدكور (كلية دار العلوم، جامعة القاهرة/مصر)

"تعرفت على فكر الشيخ فتح الله كولن من خلال إنجازات المؤسسات التي تجسده واقعًا ملموسًا، ومن رجالات يحملون هذا الفكر إلى الإنسانية في داخل وخارج تركيا. إنه الشيخ الفقيه والمفكر والعالم والمُصلِح الذي اجتمعت حوله قلوب وعقول أجيال من الأتراك المتعطشين لتجديد دنياهم بتجديد دينهم، فكانوا جميعًا، الشيخ وتلاميذه، تيارًا متدفقًا يخدم الإسلام والمسلمين والعالمين في إطار جديد يمتد

مـن الوطن تركيا إلى الأمة الإسـلامية والعالم، ويجمـع العلم والإيمان، الفكر والحركة، العقل والوجدان، الروح والمادة. لقد تمحور فكر الشيخ وجهـود الخدمـة حـول "بنـاء الإنسـان"، وهو محـور كل إصـلاح ابتداءً من الديني مرورًا بالتربوي والمجتمعي ووصولًا إلى السياسي".

أ.د. نادية مصطفى (كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة/مصر)

"الشيخ محمد فتح الله كولن اجتمعت لديه مؤهلات الداعية الناجح، وملـكات المجتهـد المجدد، ومهـارات القائد المحبوب. لـه عقل الإمام محمد عبده، وفروسـية الإمام سعيد النورسي، وحركية الإمام حسن البنا، وعاطفـة سـيد قطـب... أخـذ منهم وأضـاف إليهم وهو هـو "محمد فتح الله البسّـام". تلامذتـه باسـمون وهم يعملـون دومًا، ولكنه لا يكاد يبتسـم إلا نـادرًا، وجـل أحاديثـه وخطبـه ومواعظه مبللـة بالدموع. عينـاه اللتان أجهدهمـا طول السـهر والبكاء تمْتلئَان بكثير من العطف والإشـفاق على ما آلت إليه أحوال إنسان الأمة الإسلامية، وإنسان العصر الحديث عامة".

أ.د. إبراهيم البيومي غانم (المركز القومي للبحوث الاجتماعية، القاهرة/مصر)

"أعتقـد أن كلمة السـر في نجاح حركة الأسـتاذ كولـن ليس فقط في تبنّيهـا لقيم الإخـلاص والتضحية... إلـخ، فهي في غايـة الأهمية، ولكن أعتقـد أنهـا أيضـا في فكـرة الموازنـة بين كثير مـن الثنائيـات التي تحكم حياتنا المعاصرة في العالم العربي بشكل خاص والعالم الإسلامي بشكل عـام، بين العلمـي والديني، بين العلماني والديني، بين الشـرقي والغربي، بيـن القلـب والعقل، بين الوجداني والمنطقي.. فكـرة التوازن ما بين هذه الثنائيـات مـع إعلاء قيمـة العمل، أعتقد هـذا هو مفتاح السـر في تجربة

كولـن، وفكـرة أن الحركية ربما تكون هي الدافعة للفكر، وأظن هذه نقطة تميز هذه الحركة بشكل أو بآخر".

د. باكينام الشرقاوي (كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة/مصر)

"يعيـش الأسـتاذ فتـح الله الآن فـي أمريـكا، لكنـه يعيـش فـي تركيا فـي الوقـت ذاته، روحه موجـودة في تركيا. هنـاك أتباع وتلاميذ اقتبسـوا هـذه الروح العالية عن "فتح الله كولن".. مستشـفيات، مدارس، مسـاجد، مناشـط... شـيء مُذهـل. كلّـه يعـود الفضل فيه بعـد الله إلى هـذه الروح التي بثّها هذا الرجل: "فتح الله كولَن.. هو صاحب سلوك إيماني، وتصوف صـافٍ، بعيدًا عن الغلو والانحراف. صاحب فقه واهتمام بالفقه، صاحب عنايـة بالحديـث.. وهـو أيضًا أديـب وشـاعر ومثقف وفيلسـوف ومفكر وواعـظ.. كان يحضـر درسـه الآلاف، ومـع ذلـك أوقف هـذه الدروس بـكل هدوء، واسـتمر في مثل هذا العمل الهـادئ العظيم المؤثر.. فوجدنا تلاميـذه، ووجدنـا بصماتـه، ووجدنا قدرته علـى التأثير؛ ولذلـك هو أبو "الإسلام الاجتماعي" في تركيا، أبو "الإسلام الوعظي". الحرص هنا على الـروح الإسـلامية الواعيـة القوية، وفي الوقـت ذاته الحـرص على العلم المدنـي الحديث. نحن أمام تجربة فريدة لا توجد في العالم العربي، ربما ولا حتى -أظن- في أكثر بلاد العالم.. مجموعة من الشركات والمؤسسات؛ مؤسسـات إعلامية، اقتصادية، تعليمية، تربوية، مساجد، مناشط، مدارس، آلاف المـدارس داخل تركيا وخارجها. وهذا، الحقيقة في جو كجو تركيا شيء عجيب..."

د. سلمان العودة (المشرف العام على مؤسسة الإسلام اليوم/السعودية)

"الأستاذ كولن يريد أن يربط الأمة بفكرة مركزية هي فكرة "الخدمة الإيمانية"، أي أن يتحرك كل إنسان في الفضاء الذي هو فيه من أجل الخدمة الإيمانية. وإذا أردت أن تُحَصْوِل فكرة الرجل لقلت فتح الله كولن يساوي الخدمة الإيمانية. فضلا عن ذلك الأستاذ كولن يقر بأن الخدمة الإيمانية طريق عمومي، لذلك هو يشجع كل من سلك هذا المسلك، لأنه مسلك عام، ولا يريد أن يكون بديلًا عن أحد، ولا بديلًا لأحد".

أ.د. عمار جيدل (جامعة الجزائر/الجزائر)

"في ظني أن "فتح الله كولن" يمثل الخبرة الدينية الاجتماعية لتركيا، بكل ما تعنيه من عناصر عالمية تصلح لشعوب وأقطار إسلامية أخرى، وما تعنيه من خبرة ذاتية تاريخية وثقافية للشعب التركي، ولاستمرارية انتمائه الإسلامي الأصيل. وإن استيعاب "فتح الله كولن" لما يراه مناسبًا من الفكر الغربي في إطار الهيمنة الثقافية الإسلامية ومسلماتها العقيدية، إن ذلك يمثل قدرًا معتبرًا من الإثراء لهذه الثقافة. وإن من أهم التطبيقات التي تتفرع عن هذا الاستيعاب هي دعوته لتوحيد التعليم الديني والمدني وإشاعة الثقافة الإسلامية في ثنايا التعليم الوضعي الشائع الآن. وهذه دعوة صالحة للأخذ بها والاستفادة منها في مجالات التعليم الحديث في بلادنا المتعددة ومجتمعاتنا الإسلامية المتنوعة. وما أحوجنا للاستجابة لهذه الدعوة..."

طارق البشري (المستشار/مصر)

"في فترة معينة من الزمن تحتاج فيها الإنسانية إلى قادة روحيّين، وجدنا مثل هذه القيادة في فتح الله كولن... وفي عالم يتحدث فيه أغلب

القـادة المسـلمين البارزيـن عن الصـراع والمواجهـة، بينمـا يزوّدنا كولن بـ"صـوت جديـد" يدعو الناس من جميـع العقائد إلـى "مائدة ربانية". فمن خـلال إرشـاداته، يمكننـا صنـع عالم يكـون الحوار فيه هـو أول أَوْلويّاتنا والصراع هو آخرها".

أ.د. أكبر أحمد (الجامعة الأمريكية، واشنطن العاصمة/الولايات المتحدة)

"إن سيرة الأستاذ فتح الله كولن تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك قضية محوريـة فـي المنظور الإسـلامي وهي الصلـة الوطيدة بين صـلاح الفرد وصـلاح الأمة. إن صـلاح الأمة يبدأ بصلاح الفرد قائـدًا، وينتهي بصلاح الأفراد من آحاد الناس. ومدخل صلاح الفرد المؤدي إلى صلاح الجماعة هو درس إسـلامي أصيل بدأ بسـيرة الرسـول ﷺ، ويمر بعشـرات السـير الرائعة، إلى سـيرة الأسـتاذ كولن التي نتعرف عليها اليوم. سـيرة الأسـتاذ كولـن تثيـر قضايـا تربوية عديدة في زمـن صار فيه الجميـع ينعى أجيالنا الصاعـدة؛ ومـن بين تلـك القضايا محورية المثل الأعلـى في بناء وجدان ونفسية وطموح الأطفال والشباب".

د. أماني صالح (جامعة مصر الدولية/مصر)

"إن إحلال السـلام أصعب بكثير من إيقاد الحرب. وعلى الرغم من الموانـع فإن علينا السير جميعًا نحو السلام والاحترام المتبادل الذي يؤدي إلـى الأمن والطمأنينة للإنسـانية ورفاهها. فالعالـم الفاضل فتح الله كولن المحترم مثال حي حقًّا في هذا الصدد، فهو مثال للسـلام والتسـامح، لنا ولجميـع رؤساء الممالك وللقيم الإنسانية. فنحن جميعًا نحبّه ونقدّره".

بارثولوموس (بطريرك الروم، بطريرك فَنَر/تركيا)

"إنني أنظر إلى ما حولي، فلا أرى إلّا جمعًا من الناس، من جميع شرائح المجتمع، تُرى ما الذي دفعهم إلى المجيء إلى هذا المكان، ما الذي جمع هنا الناس من كل الأديان؟ نعم، فكما أن مولانا جلال الدين الرُّومي في قُونْيَا قد جمع حوله مئات الملايين من الناس، فها هنا أيضًا شخصية فذّة يتكلم بالمحبّة ويجذبنا إليه. هذا الشخص الموقر يتكلم عن المحبة... هذه المحبة هي التي تجمعنا هنا. ولأجل هذا أدعو له دعاءً خالصًا، فهو محتاج إلى دعائنا. فهو مثال نموذجي لعالمنا... البعض يقول: ماذا وراء هذا الشخص؟! فأقول: ليس وراءه إلاّ سلاح واحد وهو "محبة الله".

جورج مُورُوفِيج (ممثّل الفاتيكان في إسطنبول الراحل/تركيا)

"كولن هو نداء إلى المسلمين لمزيد من الوعي بأن الإسلام يدعو إلى الحاجة إلى الحوار، وأن المسلمين مدعوّون ليكونوا وكلاء وشهداء على رحمة الله للعالمين. يدعو السيد كولن -من خلال معرفته الواسعة بالتقاليد الإسلامية من خلال مزجه بين القرآن الكريم والحديث الشريف وأفكار المسلمين عبر العصور- لبناء حجة مقنعة بأن الحوار والحب والشفقة هي قيم إسلامية أصيلة، ويجب على المسلمين تقديمها إلى العالم المعاصر".

د. توماس ميتشل (سكرتارية مؤتمرات الفيدرالية المسكونية للأساقفة الآسيويين/ الفاتيكان)

"التسامح والشمولية والحب والرحمة تمثل السمات الأساسية لفكر كولن... إن أيّة دراسة لكتابات كولن تكشف مدى اختراق هذه العناصر لقلب أفكاره؛ أو بعبارة أفضل، نشأتها من قلب أفكاره. ومما يبهر النفس

أن الأمر عميق جدًّا وليس مجرد زيّ سطحي. بشكل موجز، يطرح كُولن الحب بوصفه قلب الإسلام العميق؛ ومن ثم فهو يمثل السمة الرئيسة في التصوف، حيث تتجلى عبقريته في ترجمة روح الإسلام، ولذلك يجب أن يكون مِحورًا لما تدور حوله كل أعماله".

أ.د. جريج بارتون (كلية الآداب، جامعة موناش، ملبورن/أستراليا)

"منذ عدة أعوام، تعرفتُ على كتابات جلال الدين الرومي عن طريق زميلٍ لي يتمتع بروحانية عميقة. لكنني الآن وجدتُ شخصية جديدة ومعاصرة تُماثل "الرومي"، لا تؤثّر حياته وتعاليمه في عالم الإسلام اليوم فحسب، بل تؤثّر أيضًا في الحركة العظيمة للاشتياق الديني عبر العالم".

د. دونالد نستي (جامعة القديس توماس، هيوستن/الولايات المتحدة)

"إن مجتمع الرجال المخلصين الذين قابلتُهم في تركيا هو مجتمع من المسلمين نشأ في الأناضول تحت إرشاد الرومي، الشاعر العظيم والمعلّم الروحي في القرن الثالث عشر. إن القائد الفكري والروحي لهذا المجتمع في الوقت المعاصر، الذي يلهم تلاميذه الأتراك بالكثير من العمل التعليمي والروحي، هو السيد فتح الله كولن. يوجد لدى هذين الرجلين الورِعَين القادمين من قرنين متباعدين القدْر الكثير مما يمكن قوله للمسلمين ولغير المسلمين على السواء عن كيفية التباحث في شأن هذا العالم المضطرب الذي نعيش فيه".

د. لين إي ميتشل (مدير الدراسات الدينية، جامعة هيوستن/الولايات المتحدة)

"إنَّ الإيثـار والتضحية من أجل الآخرين والتي غرسـتها تعاليم كولن في النفوس صنعت رجالًا ينفقون الملايين في إنشاء المدارس والجامعات والمستشفيات دون أي مقابل ودون أن يمنّوا على أحد بهذا العطاء..."

د. مورين فيدلر (جامعة جورج تاون/الولايات المتحدة)

"إنـي شـاهد عيـان لعديـد مـن المبـادرات التي قامـت بهـا الحركة في الولايات المتحدة، لأنى كتبتُ كتابي الخاص بالأستاذ فتح الله كولن... الأسـتاذ لا يتبنّـى بمحاضراتـه ومواعظـه وكتبـه المفهوم الغربـي للفصل مـا بيـن الديـن والدولـة، ولكنـه مـع ذلك، يتناسـب فهمـه لـدور الدين مـع نفس الأسلوب الذي يمارَس به في بعض المناطق بالغرب... قد حققت حركـة كولـن قدرًا كبيرًا من النجاح فـي الغرب... إنها تفهم أن دور الدين هـو تزكيـة للأفـراد، وأن هذا يحدث فقـط حينما يعيش النـاس جماعات وأفـرادًا هـذا الإيمـان -الفضيلـة- بشـكل فعـال. ومـن ثـم يقـوم هؤلاء "المجانين"، بتأسـيس مبادرات للمجتمـع المدنـي، وتوحيد الناس جميعًا علـى مبادئ هي بالتأكيد فاضلة. فهذا هو الشـاهد الحقيقي للإيمان، وهو ما يحفز الآخرين لتبني تلك القيم الإنسانية العميقة في قلوبهم وأفكارهم".

د. جيل كارول (كلية العلوم الدينية، جامعة رَايسْ ، تَكْساس/الولايات المتحدة)

"الزمن لا يجود برجال من أمثال "فتح الله كولن" إلَّا بين قرن وقرن؛ إنهم يرفعون راية الأمل وشعلة الرجاء من قلب الظلام الذي يغشى العالم والأخذ بيد البشرية إلى الطريق المفضي إلى النور والأمل والسلام..."

عقيل الدين ميان (مجلة Weekly Cutting Edge/باكستان)

"كـن كما تشـاء فـي أي درجة مـن درجـات الحداثـة والتعليم، فلن يحول ذلك بينك وبين الإيمان والتسليم... أظن هذا ما يدعو إليه الأستاذ "كُولن"..."

إحسان مسعود (**مجلة** Prospect / **إنجلترا**)

"مؤيّدو "كولن" يشكلون مزيجًا رائعًا في غاية التناغم والانسجام بين متعلمين شغوفين بالعلم، وإيمانيين شغوفين بالإيمان، وحركيين يسهمون في تحريك عجلتي الاجتماع والاقتصاد في البلاد..."

(**مجلة** Foreign Policy / **الولايات المتحدة**)

رَجُلُ الأَسْرَار

(أ.د. فريد الأنصاري ﵀ من روايته "عودة الفرسان")

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحدًا!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَبًا!

فَتْحُ اللهِ فَارِسٌ ليس تلين عَرِيكَتُهُ، ولا تضعف شَكِيمَتُهُ! ولَصَوْتُهُ في الكَرِّ أشدُّ من فرقعة الرعد! يقاتل في النهار حتى تذوب الشمس في دماء البحر، فإذا خَلاَ لِأَشْجَانِ الليل بكَى..!

مَكِينُ الوثبة كالأسد، حادُّ الرؤية كالصقر، رهيب الصمت كالبحر، إذا سكتَ خَطَب، وإذا نطقَ الْتَهَب! وإنه لَيَشِفُّ كالزجاجِ إذا هو كَتَب!

كل الناس يعرف فتحَ الله، وكل الناس يسمع فتحَ الله، ولكن لا أحد يعرف ما يريد فتحُ الله! فلم يزل سِرُّهُ في صدره، يَقْبَعُ في الأعماق مثل اللؤلؤ المكنون!.. ومن يدري؟ فلعله فارسٌ لم يشرق بَعْدُ زمانُه! ولَا حَانَ وقتُه وإبَّانُه! وأي بلاء أشد على المرء من أن يعيش قَبْلَ أَوَانِه؟ ويعاشرَ غيرَ أهلِ زمانه؟

ولم يزل فتح الله يرسم ملامح الماضي في لوحة المستقبل، فينفخ فيه؛ فيكون واقعًا بإذن الله! كلما كَتَبَ مقالًا أو خَطَبَ خُطبةً؛ تشكلت

كلماتـه صورًا لقوافـل الصحابة الكرام، ولجيش محمـد الفاتـح، يزحفون صَفًّـا مـن خلـف غبار الغيـم، مَطَـرًا يهطل من أُفُـقِ بـلاد الأناضول على كل العالَم!

فَتْـحُ اللهِ لاَ يملـك من هذه الدنيا سـوى ملابسـه القديمـة، ومحفظة أحزان صغيرة تصحبه أنَّى حَلَّ وارتحل، لم يزل يحتفظ فيها بثلاثة مفاتيح عتيقـة! الأول: مفتـاح "الباب العالي" في إسـطنبول، والثاني: مفتاح "باب الحِطَّـةِ" في المسـجد الأقصـى، والثالث: مفتاح جامـع قرطبة في أندلس الأشجان!

رجـلٌ وحده يسـمع أنينَ الأسـوار القديمة، ونشـيجَ الريـح الراحل ما بين طنجة وجاكرتا! وبكاءَ النورس عند شـواطئَ غادرتها سـفنُ الأحبة منذ زمان غابر، ولكن لم يشرق لعودتهم بَعْدُ شِرَاعٌ!.. فيبكي!

رجلٌ وحده يسـمـع صهيلَ الخيل القادمة من خلف السُّـحُبِ، ونداءَ الغيـبِ المحتجِـبِ، إذ يتدفق هاتفه على شـاطئ صدره، فينـادي مِنْ عَلَى منبره: "ألَا يا خيلَ الله اركبي!.. ويا سيوف البرق الْتَهِبِي!"..

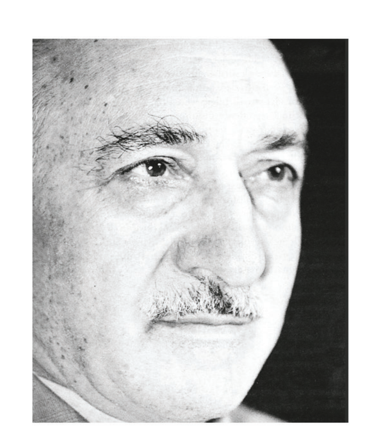
ويَرَى ما ليس يُرَى.. فيبكي!

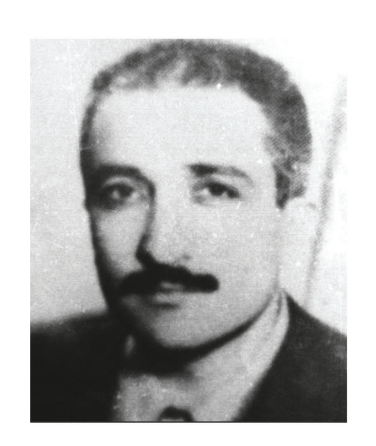
فتـح الله سـيرةُ بـكاء! لقبـه الأسـري: "كُولَـنْ"، ومعنـاه "الضحاك" باللسـان التركـي، وهذا من عجائـب الأضداد، ومن غرائـب الموافقات أيضًـا! فهـو بَـكَّاءُ الصالحين في هـذا العصر، لكنه ما بكـى إلا ليضحك الزمان الجديد، وليزهر الربيـع في حدائق الأطفال. ما رأيت أحدًا أجرى دمعـا منه، ولا أكثر وَلَهًا.. وكأنما دموع التاريـخ جميعًا تفجرت أنهارها من بين جفنيه!..

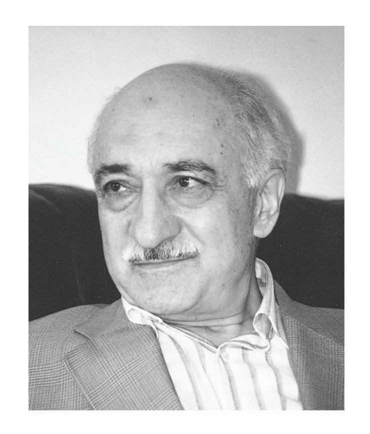
ولقـد أخطـأ مـن ظنه يبكي ضعفًـا أو خَوَرًا، وإنما هو جَبَلٌ تشـققت أحجاره عن كوثر الحياة الفياض، فبكى!..

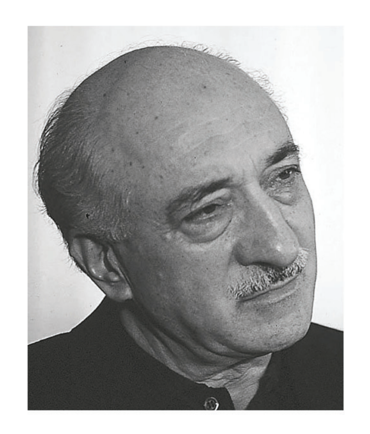
الوعظ سـر من أسـرار فتح الله! فلم يزل منذ طفولته يبكي بمجالسه؛ فتبكـي لبكائـه كل عصافيـر الدنيا! ولقد رأيته يبكي طفلًا وشـابًا، ثم كهلًا وشـيخًا! ولم يـزل يبكي ويبكي.. ومـا جف لتدفق شـلالاته نَبْعٌ! بدموع مواعظـه الْحَـرَّى سـقى فتـحُ الله كل غابات بـلاد الأناضـول! وبها أروى عطـش الخيـل، وأطعم فقـراء الليل! وبوابـلِ بوارقها سـقى كل صحاري العالم! ولقد عجبتُ من أي جبال الدنيا تخرج منابعه؟

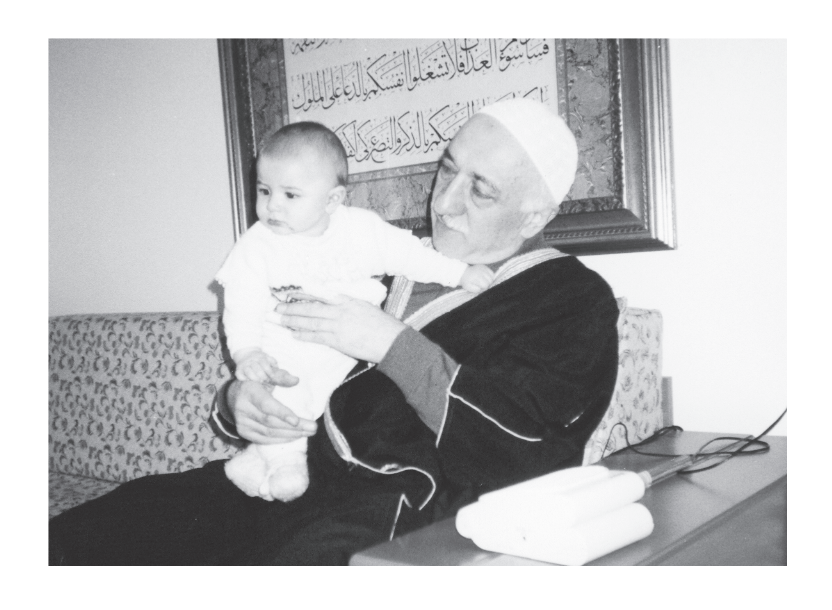
أرشيف الصور







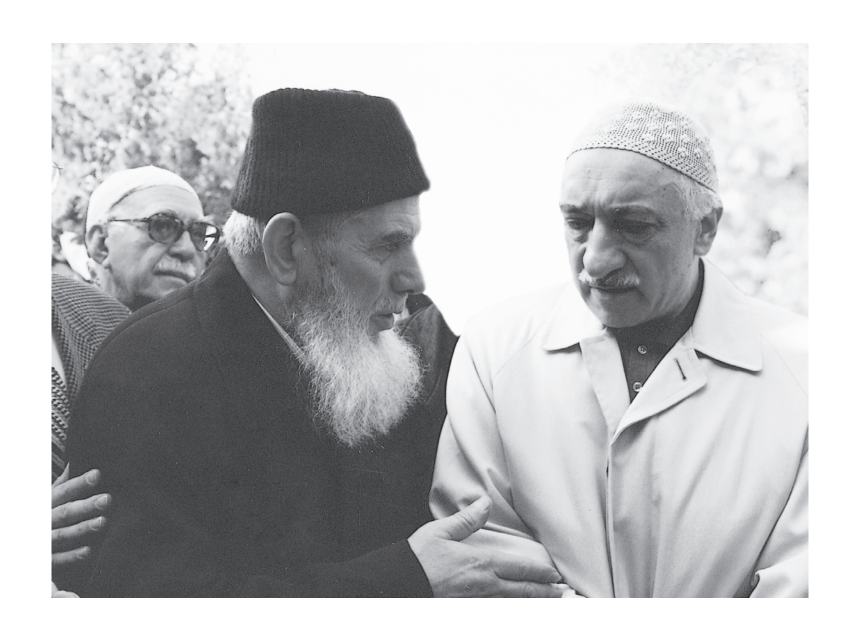














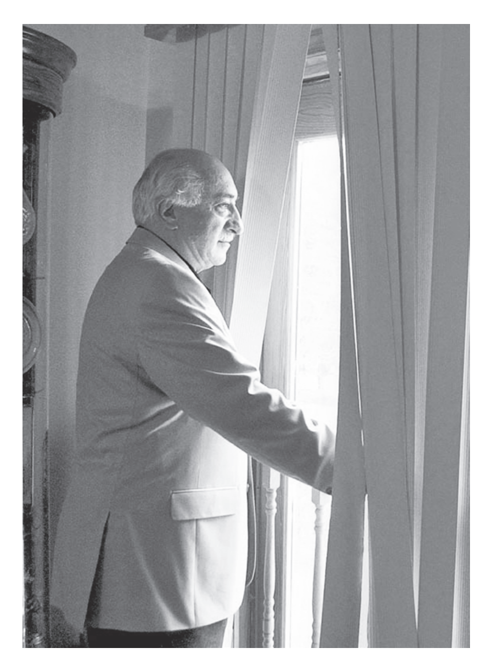

SONY
SONY















عودة الفرسان

أ.د. فريد الأنصاري

- رواية شاعرية النَّفَس،
- واقعية المضمون،
- وَهَّاجة النور،
- شاجية القلب،
- وجيعة الوجدان...
- تغنِّي للأمل، وتهتف للمستقبل؛
- تكفكف الدمع، وتمسح الألم...

مؤتمر دولى

مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي

خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية



واقع الفكر الإصلاحي في تجربة فتح الله كولن.

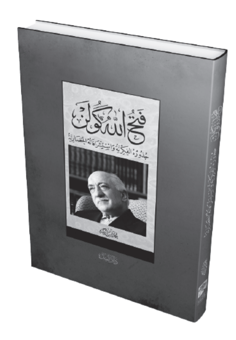
حوار معمّق في الفكر الإصلاحي بين جمهرة من المفكرين.

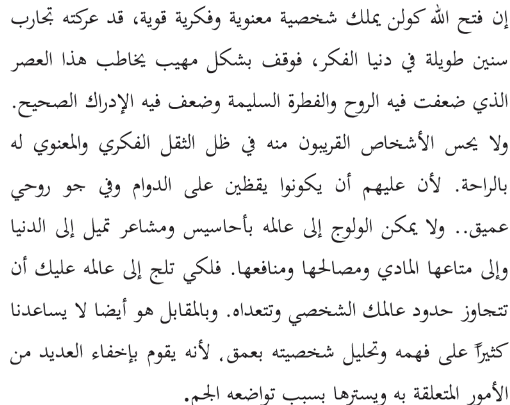
مقارنات ثرية بين تجربة الإصلاحيين وتجربة فتح الله كولن.

تجربة فتح الله كولن الإصلاحية بين النظرية والتطبيق.

قراءات شاملة في تجربة «كولن» كواحدة من النماذج الرائدة.







فتح الله كولن
جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية

محمد أنس أركنه

إن فتح الله كولن يملك شخصية معنوية وفكرية قوية، قد عركته تجارب سنين طويلة في دنيا الفكر، فوقف بشكل مهيب يخاطب هذا العصر الذي ضعفت فيه الروح والفطرة السليمة وضعف فيه الإدراك الصحيح. ولا يحس الأشخاص القريبون منه في ظل الثقل الفكري والمعنوي له بالراحة. لأن عليهم أن يكونوا يقظين على الدوام وفي جو روحي عميق.. ولا يمكن الولوج إلى عالمه بأحاسيس ومشاعر تميل إلى الدنيا وإلى متاعها المادي ومصالحها ومنافعها. فلكي تلج إلى عالمه عليك أن تتجاوز حدود عالمك الشخصي وتتعداه. وبالمقابل هو أيضا لا يساعدنا كثيراً على فهمه وتحليل شخصيته بعمق، لأنه يقوم بإخفاء العديد من الأمور المتعلقة به ويسترها بسبب تواضعه الجم.





عبقرية فتح الله كولن

بين قوارب "الحكمة" وشواطىء " الخدمة"

أ.د. فؤاد البنا

- كتاب غاية في الإمتاع ....
- قلم محب يجري في مسارب فكر ...
- سيرة وحياة .... ومجاري أقدار...
- عبقرية فرد ..... وعبقرية أمة....
- إشراقات حكمة على أرض الخدمة ...



الانبعاث الحضاري

فى فكر فتح اللّه كولن

أ.د. سليمان عشراتي

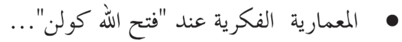


- الانبعاث الحضاري في مفهوم " فتح الله كولن"
- قوى الأمة النائمة .... وعوامل إيقاظها.
- تحريك الفكر .... كيف يكون؟
- تحفيز الوجدان .... لماذا ينبغى أن يكون؟
- روحانيات الأمة .... كيف نفيد منها؟
- المنهجية والتخطيط الوسائل والاهداف.
- المعوقات والمشجعات.

هندسة الحضارة

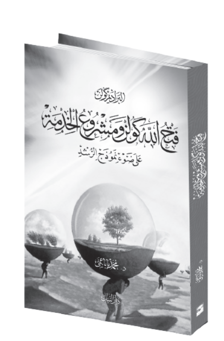
تجليات العمران فى فكر فتح اللّه كولن

أ.د. سليمان عشراتي



- المعمارية الفكرية عند "فتح الله كولن"...
- آثار الأمكنة فى التشكيل الفكري عند "كولن"
- لوحات الحضور التاريخي فى وجدان " كولن"
- البناء الحضاري للأمة كيف يخطط له " كولن"





البراديم كولن

فتح اللّه كولن ومشروع الخدمة

على ضوء نموذج الرشد

د. محمد باباعمي

- دراسة معمقة فى فكر الاستاذ "فتح الله كولن".
- اللقاء الحميمي بين قمم الفكر الديني وقمم الفكر الحضاري.
- تسليط الضوء على الطاقة التفجيرية لقدرات الإنسان العملية والفكرية.
- مصطلح "الخدمة" ومضامينه وأبعاده فى فكر الأستاذ "فتح الله كولن".
- المدرسة كوحدة من وحدات تأسيس الفكر الإيماني والعلمي على حد سواء.

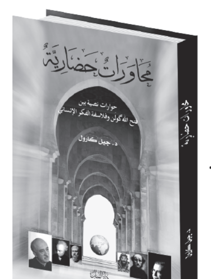


محاورات حضارية

حوارات نصية بين

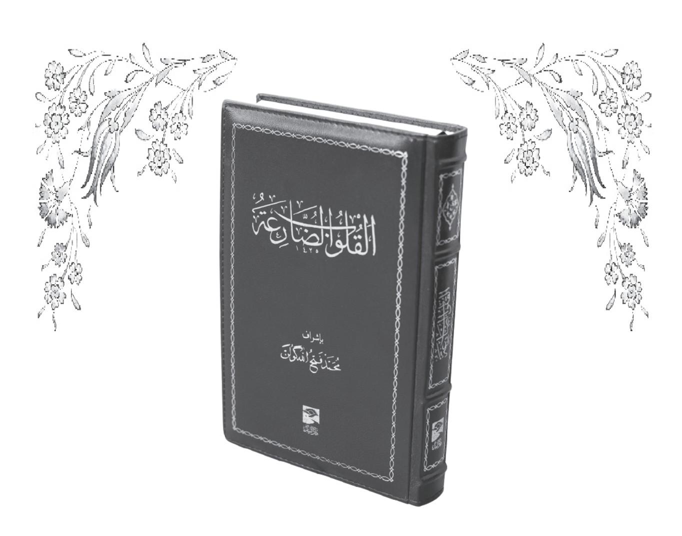
فتح اللّه كولن وفلاسفة الفكر الإنساني

د. جيل كارول



- مقاربات فكرية بين «كولن» وعمالقة الفكر الإنساني عبر التاريخ.
- مفهوم «الحرية» عند «كولن» وعند رواد الحرية المعاصرين.
- المردود الأخلاقي للتفسير الروحي للكون عند «كولن».
- التجوهر الإيماني في ذات الإنسان ومردود ذلك على حياة البشرية.
- الحوار من أجل سلام يعمُّ البشرية قاطبة كما يفهمه «كولن».





القلوب الضارعة

بإشراف: محمد فتح الله كولن

أنَّات قلوب، وأشجان أرواح، تتوجه إلى بارئها بانكسار وتذلل ليجبر كسرها، ويقيل عثرتها.

بين دفتي هذا الكتاب -الذي جمعه العالم الرباني فضيلة الأستاذ "فتح الله كولن"- أنّات قلوب، وأشواق أرواح، ودموع واجدين، وضراعات توابين هارقين نجيعهم على عتبات سامع النداء، ومجيب الدعاء، ومكفكف الدموع، وقابل التوب، الرحمن الرحيم، والبَرِّ الغفور...

هنا يتلاشى الزمان ويضمحل المكان ولا شيء يبقى غير فيوضات أشواق، وومضات احتراق، ومكابدات أكباد، وكوىً تتفتح على أبدٍ أبيد، ومشاكي أنوار تتألق في سماء الخلود. هنا رجال أدركوا فَسَموا بإدراكهم، وعَرَفوا فارتفعوا بعرفانهم. فلم يعودوا واقعين تحت ضغوط الأرض، أو محبوسين في ضيق الكائنات. إنهم رجال ملهمون، وإلى آفاق الغيوب يستشرفون.